



الكتاب  
الماسي  
نص  
عربية

# هَذَا النِّسْوَع

## عن النساء

بقلم  
أ. مدين يوسف غراب







الکتاب الماسی

# هذا النوع من النساء

بمقام  
الأمیر یوسف خراب



غدا... سَأُحِبُّكَ

كان مثلى ، ومثلك ، ومثل الناس جميعا • رجل له عقل ، وله قلب • وله احساس وشعور ، وكان ودودا محبا للخير وللناس وللدنيا • وكان أيضا ضحوكا مبتسما دائما لأنه لا يريد لأحد أن يراه الا كذلك • كانت هذه هى شخصيته الظاهرة التى يعرفها الناس • أما شخصيته الأخرى ، شخصيته الحقيقية اليأسية التى يعرفها هو • ويعيش فيها منذ أن وقف على قدميه ، وخبر الدنيا وعرف الحياة ، وتشوف قلبه الى مفاتها • كانت تختلف اختلافا كبيرا ، فهو يعيش بحواسه المنظورة أمام الناس • يرى ويفكر ويتحدث • ويضحك ولا تفارق الابتسامة ثغره اذا وقعت عليه عين ، وهو يعيش بحواسه غير المنظورة ، لنفسه ، عيشة شقية يائسة ترهقه وتضنيه ، وتعذب قلبه عذابا كبيرا • لدرجة أنه كان يئن فى الليل ويتوجع فى النهار ، كانت احساساته الخبيثة تشبه الشياطين التى تنهال عليه وكان يشعر بهذا شعورا حقيقيا كلما تعمق فى ذاتيته وخلا الى نفسه وابتعد عن الناس ، فلا يملك غير الألم والوحشة واليأس والقنوط من كل شيء • انه يشعر شعورا صادقا بأنه يفقد شيئا ، شيئا هو الحياة ، وهو الدنيا ، وهو العمر الذى يعيشه ولكن ما هذا الشيء ؟ ما كنهه ؟ ما لونه ؟ ، انه لا يعرفه ومع ذلك فانه كلما ازداد ايمانه بأنه يجهله جد فى البحث عنه ، وكلما أخفق فى العثور عليه بكى ، وجلس يسأل نفسه متى سيجده ، متى سيفطر به ، انه يبحث عنه منذ عشرات السنين ، منذ أن عرف نفسه وعرف الدنيا وعرف الحياة ، وكان كلما تسرب اليه اليأس أحس برغبة فى البكاء ، وكثيرا ما كان يبكى ! وكثيرا أيضا ما كان يسأل نفسه وهو يبكى لماذا يبكى ؟ هل تنقصه الصحة ؟ • هل ينقصه المال ؟ • هل ينقصه المجد ؟ • هل تنقصه المرأة ؟ • انه يملك من هذا كله الكثير ، يملك الصحة التى يتمتع بها كيفما شاء • وأعطى المال الذى فاض وكثر حتى كاد يفقد قيمته كأي شيء يزيد على حاجته ، وعرف من النساء الجميلات وغير الجميلات كثرة لاعداد



لها • فماذا يريد اذن • وما الحياة ان لم تكن الصحة • وما الجاه ان لم يكن  
الذل والمنصب وما الدنيا ان لم تكن المسراة • ولكن هل حقيقة هذه هي  
الحياة • وهذه هي الدنيا وهذا هو العمر ؟؟ لا • • • ان الحياة شيء آخر  
شيء اسمه القلب • الدنيا هي القلب • والعمر هو القلب • والهناء هو  
القلب وماذا يريد القلب ؟ يريد الشيء الذي يفتقده • وما الشيء الذي  
يفتقده ؟ • انه لا يدري •

كانت هذه هي حياته الثانية التي لا يعرفها الناس • حياته الشقية التي  
تضنيه وتعذبه • حتى جعلته يعيش كمجنون يسير في الطرقات على غير  
هدى مطرقا ينظر الى مكان قدميه من الأرض ويتحسسها بعينه وكأنه  
يبحث في طينها وترابها عن ذلك الشيء الذي فقد منه • وكما أن الشمس  
كانت منذ عشرات السنين تشرق من المشرق كما تشرق اليوم تماما وتظل  
سائرة في دورتها حتى يلحق بها الملل • فتتوارى آخر النهار متعبة مكدودة  
جريح القلب وتغرب كما تغرب اليوم تماما • • • ظل هو كذلك أيضا عشرات  
السنين • فمذ أن وقف على قدميه وعرف صحوة العمر • ظل يستيقظ  
مبكرا كما تستيقظ الشمس تماما • ويسير مطرقا بين الناس يبحث عن الشيء  
الذي يفتقده والذي هو حياته ودنياه وغمره • الى أن ينتابه الملل آخر  
النهار فيعود الى بيته مكدودا جريح القلب • كما تعود الشمس الى بيتها  
في المغرب مكدودة مخضبة الجبين • على أن تعود في الصباح المبكر • وعلى  
أن يعود هو أيضا في الصباح المبكر • غير أن الفرق بينه وبين الشمس كان  
كبيرا • كانت تلك بعد الغروب تجدد قواها وتستعيد نشاطها ونورها حتى  
اذا ما استيقظت في الصباح أطلت على الكون باهرة الضياء كعادتها • أما هو  
فكان اذا عاد الى بيته آخر النهار قضى ليله تعذب القلب حتى اذا جاء الصباح  
خرج على الناس مصفرا شاحب الوجه لا تكاد تحمله قدماء • وظل كذلك  
الى أن تسرب اليه اليأس القاتل • اليأس من كل شيء من حياته ودنياه  
وعمره وقلبه أيضا • فمرض وأصبح جسده الذي كان لا يعرف غير الصحة  
والقوة والنشاط بيتا للعلل وخزانة للأمراض • وبعد أن كان لا يعرف غير  
مجالس الضحك وبيوت الهناء • أصبح لا يعرف غير مجالس المرضى •



وبيوت الأطباء ، ولا يتردد الا على الصيدليات ولا يصادق الا طيبا أو مريضا . وبعد ان كانت غرفة نومه لا تضم الا الزهور والورود وزجاجات العطر المختلفة ألوانها أصبحت لا تعرف غير تذاكر الأطباء وزجاجات الأدوية من كل صنف ولون ، وبعد أن كان طاهيه لا يعرف غير التفنن في صنع أجود أنواع الأطعمة وتقديم أحسنها اليه ، أصبح لا يجيد غير تقديم الدواء في مواعيده ، ويصنع طعام المرضى . . وبعد أن كانت الابتسامة الحلوة لا تعرف غير ثغره ، والضحكات العذبة لا تعرف كيف تتألق الا على شفثيه أصبح وجهه لا يعرف غير الكآبة ، وثغره لا يعرف غير الحسرة والمرارة تتمطى من حين الى آخر على شفثيه ، حتى القدرة على السير فى الطرقات وبين الناس فقدما . وأصبح لا يرى وهو يسير على قدميه الا نادرا . وظهر كذلك الى أن حدث له ذات يوم حادث عجيب ، كان يسير يوما على قدميه بين الناس متعبا مكدودا . وكان يسير من طريق الى طريق دون أن يدري الى أين هو ذاهب . وكان يحمل فى يده كتابا يحرص عليه ويحب أن يقرأ فيه من حين الى حين ، وكان اسم الكتاب - ورود بلا عطر - للكاتب الفرنسى جيد . وكانت حياة بطل القصة تماثل حياته تماما . رجل يعيش بين الناس كما يعيشون ، يأكل ويشرب ويتسم ويضحك ويتحدث ويصمت ، وينام ويستيقظ ، ولكنه بلا قلب ، بلا روح ، بلا حياة . وظل يسير والكتاب فى يده الى أن تذكر أخيرا أين هو يقصد ، انه يريد أن يذهب الى احدى دور تغليف الكتب ، ليحفظ هذا الكتاب الثمين داخل غلاف يقيه عاديات البلى . ووجد نفسه ، فى شارع نوبار ، وأمام مطبعة معروفة ، فراح يتحسس خطاه اليها فوق الطوار ، وبينما هو كذلك رأى أمامه وبجانب الطوار عربة صغيرة بعجلتين كان يدفعها رجل أمامه وجلس ليستريح ، انه رجل يبيع العاديات « الروبايكيا » ونظر اليها فرأى أشياء كثيرة غير متجانسة ، وأيضا غير ذات قيمة ، نصف يد لمذبة من السن ، مكسورة الى النصف ، مجبرة نحاسية من غير غطاء ، عدة زجاجات عطر فارغة ، عدة اسطوانات مكسورة لمطربين قدامى لعبد الحسى والحامولى وسلامة حجازى ومنيرة المهدية ، وفردتى حذاء كل واحدة ذات لون



مختلف ونصف جوزة هند كانت في الأصل غطاء لشيء ما ، وعدة براونيز من الصدف تأكلت جوانبها جميعا ، وشمعدان كان في الأصل من البلور فأحاله الزمن الى ما يشبه الحديد ، نظر الى هذا كله وتأمله جيدا . انها جميعا أشياء ناقصة ، ولكن هل هذا هو ذنبها ؟ هل هذا يحط من قيمتها ، انه هو كذلك ينقصه شيء . وافتر ثغره عن نصيف ابتسامة ، وهم أن يواضلي سيره ولكنه رأى شيئا آخر مطمورا في قلب العسربة ، فتأمله ، وكلحنا دفع فيه النظر أحسن بشيء يجذبه اليه ، ويثبت عليه نظراته ويقربه منه . فمد يده اليه وأخرجه من قلب العسربة ، فاذا به تمثال لشيء غريب ، لم يكن من السهل أن تعرفه عندما تراه . كان من الحجر ولرجل ينظر الى الخلف ويتسسم ابتسامة كلها سعادة وكلها هناء . وكلها فرحة تفيض عليه ، وكانت المسافة التي خلف الرجل ينظر اليها ويتسسم مسافة طويلة جدا . عكس مسافة الطريق التي بقيت أمامه . فقد كانت هذه قصيرة جدا ، ووقف هو ينظر الى التمثال ، والى الرجل الذي يمثلها ، والى المسافة الطويلة التي قطعها الرجل والتي ينظر اليها ويتسسم هذه الابتسامة ، والى المسافة القصيرة التي بقيت أمامه ، وينظر أيضا الى الابتسامة التي تثير وجه الرجل ، وتضفي عليه كل هذه السعادة وهذا الفرح . ويفكر الى ماذا يرمز هذا التمثال ؟ ما هذه الطريق الطويلة التي قطعها الرجل ؟ وما هذه الطريق القصيرة الباقية أمامه ؟ ولماذا هو فرح كل هذا الفرح ؟ . سعيد كل هذه السعادة ، مشرق الوجه كل هذا الاشراق ؟ . انه ولا شك يرمز الى شيء مريع ، مريع جدا ، شيء أحسن هو به ولكنه لم يعرفه . ولما عجز عن الفهم سأل الرجل الذي يبيعه ربما يكون عنده السر وقال :

— الى ماذا يرمز هذا التمثال ؟ .

فأجابه الرجل دون أن ينظر اليه وكان قصيرا مفرط القصر . له وجه يشبه الدببة تماما ، ويحمل في رأسه كثيرا من الجهل ، كما تحمل عربته أشياء كثيرة ناقصة ، وقال :

— علمي علمك .



• فعاذ ونظر الى التمثال مرة ثانية ، وتأمله مرة أخرى ، واسترعى نظره  
هذه المرة ان شيئاً ما كتب عليه • فقرأه فإذا به هذه الجملة الغريبة - بعد  
الأربعين - عند ذلك عرف كل شيء ، ووضح له كل شيء ، وعرف أيضا  
قيمة هذا التمثال ، ان الرجل مبتهج كل هذا الابتهاج لانه تخطى الأربعين ،  
لأنه قطع أكثر الطريق ، ولم يبق على النهاية الا القليل ... حقيقة أن  
هذا يبهج • • يبهج كثيرا ، ومن حق هذا الرجل أن يبهج ، وأن ترسم  
على وجهه هذه الابتسامة التي تفيض عليه سرورا وغبطة • ومن حق كل  
من هو مثله أن يكون كذلك ، وتذكر أنه هو كذلك ، أنه هو أيضا  
تخطى الأربعين ، وأنه أيضا قطع أكثر الطريق ، وأن الطريق الباقية  
أمامه هو الآخر قريت ، قريت جدا • فلماذا لا يسعد هو أيضا ، لماذا  
لا يبهج هذا الرجل الحجري الواقف أمامه ينظر الى طول المسافة التي  
مضت ، ويضحك ويتسم وتتهلل أساريره ، وأى شيء أدعى الى السعادة  
من أن ترى بعينك طريق الشقاء قد أوشك أن ينتهى ، من أن ترى ظلمة  
الليل قد دنا أجلها ، من أن ترى الهناء الكبرى تمد اليك يدها ، ونظر الى  
التمثال مرة أخرى ، نظر الى الشيء الذى أبهجه لأول مرة فى حياته  
وأحس أن قلبه يخفق لأول مرة بشيء غريب يشبه النور راح يتسلل الى  
قلبه ويبدد ظلمته ، ووقف طويلا وأراد أن يسير ولكنه لم يستطع أن  
ينزع قدمه من الارض ، أن يرفع عينه من على التمثال • ويقطع ذلك  
الخط من النور الذى يتسلل الى قلبه ، ان هذا التمثال أصبح بالنسبة اليه  
شيئا يشبه الحياة تماما ، انه حياته فهل يتركها وينصرف ؟ ونظر الى الرجل  
وقال :

- كم ثمن هذا التمثال ؟ •

- جنيهان •

نطقها الرجل دون أن ينظر اليه أيضا ، فخفق قلبه لا لأن الثمن  
باهظ • فهذا التمثال يساوى عنده مال الدنيا جميعا ، وهو يدفع فيه كل ماله  
ولكنه اضطرب لأنه كان لا يملك فى جيبه فى تلك اللحظة سوى جنيه  
ونصف فقط ، ولذلك راح يساوم الرجل ويقول له :



– انك تغالى •

فلم يفهم الرجل قوله لأنه قال ، ودون أن ينظر اليه أيضا :

– غالى • سبيه •

فخفق قلبه مرة أخرى لأنه رأى الاصرار فى عين الرجل ولكنه

قال :

– أعطيك جنيها ونصف الجنيه •

فلم تتأثر ملامح الرجل ، وقال وكأنه يضيق به :

– أقل من جنيهين مليما يفتح الله •

فنظر اليه لحظات والى الجهل المرتسم على وجهه وقال له :

– بكم اشتريته ، وأنا أدفع لك الربح الذى تريده •

فقال الرجل وهو يتأمل بقية سيجارة كانت هناك على الطوار ،

وينظر اليها :

– بخمسة وعشرين قرشا •

– وهل تربح من تجارتك كل هذا الربح ؟ •

فنظر الرجل ضاحكا الى عمارة شاهقة كانت أمامه ، وقال :

– لو كان ذلك لاشتريت الآن هذه العمارة •

– اذن • لماذا تريد أن تبيعه بجنيهين ؟ •

فقال الرجل وعينه لاتزال ترقب بقية السيجارة التى أمامه على

الطوار :

– لأنى أنا أيضا صاحب مزاج • ومبسوط منه • فاما أن أبيعـه

بشمن كبير ، واما أن أبقيه أمامى فوق العربة أنظر اليه وأضحك كما

يضحك •

– هل تعرف لماذا هو يضحك ؟ •



– كما تضحك أنت ، وأضحك أنا ، ويضحك الناس جميعا •

– ولماذا يضحك الناس ؟ •

– كما أضحك أنا تماما •

– وهل تحب أنت الضحك ؟ •

فقال الرجل وهو يمسك يده ويلتقط بقية السسيجارة من على

الطوار :

– هل تشتري هذه الاسطوانة ؟ •

ثم مد يده الى العربية وتناول من عليها اسطوانة مكسورة وقال :

– انها لصالح عبد الحى ، انه يقول فيها « أضحك من الفم وأبكي

من صميم قلبي » وأنا أضحك تماما كما يضحك صالح عبد الحى •

فنظر اليه وتأمل وجهه ثانية وقال :

– ولكنى لا أملك فونوغرافا أديرها عليه •

فقال الرجل على الفور وهو يشعل بقية السسيجارة التى تحرق

شفتيه ، ويهم بدفع العربية أمامه ليسير :

– يبقى مع السلامة •

فلحق به وقال له وهو يستوقفه :

– خذ هذا الجنيه ، واحضر التمثال الى فى البيت • وخذ الجنيه

الباقى •

فتهللت أسارير الرجل وقال وهو ينظر الى الجنيه :

– هل سلم بيتك عال ؟ •

وكان السؤال غريبا فقال له :

– لماذا ؟ •



— لأننى مريض بالقلب ولا أصعد السلالم •

— ولكنك تسير طول النهار على قدميك •

— أكل عيش •

— اطمئن • اننى أقطن الدور الأول •

فانبسطت أساريره مرة أخرى وقال وهو يتناول الجنيه :

— أين مكان البيت ؟ •

— مصر الجديدة •

فأظلم وجهه على الفور وقال وهو يعيد اليه الجنيه ، ويدفع العربته أمامه ويسير :

— ياعم سيينا ناكل عيش • احنا فين ومصر الجديدة فين •

فقال وهو يتشبث به مرة أخرى :

— خذ الجنيه ، واحضر أنا لك فى الغد آخذ التمثال •

— وأين ستجدنى • أنا رجل لا مكان لى • ساعة فى شبرا ، وساعة فى العباسية ، وساعة فى الروضة •

فشعر بكثير من الضيق يلم به • وراح يفكر فى حل أى حل يرضى به هذا الرجل الذى يناكفه الى هذا الحد • ولكنه لم يجد ، ولذلك راح بحركة لا ارادية ودون أن يفكر ، يبحث فى جيوبه مرة أخرى لعله يظفر بمبلغ آخر من المال يساوى نصف الجنيه الذى يطلبه هذا الرجل ، ولكنه لم يجد ، وبينما هو فى هذا الضيق ، أقبلت سيارة فخمة تقودها فتاة ذات جمال رائع ووقفت بجانبها تماما ، وأمام صالة من صالات عرض السيارات ، وفتحت الباب المقابل لهما وهبطت من السيارة وهمت أن تدخل الصالة • فاذا بعينها تقع مصادفة على التمثال فوق العربته • فاذا بها تذهب اليه وراحت تتفحصه جيدا ، ولما رأت عينه هو متعلقة بالتمثال ، وكأنها شدت اليه شدا ، قالت له :



— هل تريد أن تشتريه ؟ •

— أجل •

فقالت وهي تعيده ثانية الى مكانه من العربة ، وفي شيء من الأسف •

— لا تتركه • انه تمثال ثمين •

ثم نظرت الى التمثال مرة أخرى ونظرت اليه مرة ثانية وقالت :

— ان عليه الامضاء ، انه ليكلانش ، أكبر رسام ايطالى في القرن

التاسع عشر •

قالت له ذلك ، وانصرفت لتدخل الصالة ، فاذا به يري نفسه يلحق بها وهو يقول لها في خجل زائد ، والجنيبه والنصف مازالا في يده :

— أرجو أن تقرضيني نصف الجنيه ، لأنه يصر علي جنيهين ، وليس

معي الآن المبلغ جميعه •

فقالت وهي تبسم في سرور زائد وتفتح حقيبتها وتناوله نصف

الجنيه :

— تفضل بكل سرور •

ولما تناول منها المبلغ قال ولم يزايله خجله :

— أرجو أن أعرف العنوان ، أو رقم التليفون ، حتى أتمكن من

رد هذا الجميل •

فابتسمت ناظرة اليه دون أن تجيبه وأرادت أن تنصرف ، ولكنه ألح وأمعن في الالاحاح ولما ضايقهما الحاحه هذا الزائد ، أعطته رقم التليفون ، وانصرفت الى الصالة مبتسمة مشرقة الوجه كما أقرضته نصف الجنيه مبتسمة مشرقة الوجه •

ولما حمل التمثال معه الى بيته كان لا يدرى أيهما جدير بالشكر على هذه الهناءة التي كتبت له أهذا التمثال الذي فتح له نافذة النور ، وبدد غياهب تلك الظلمة التي كانت تعيش في قلبه ، أم تلك السيدة



التي صنعت له هذا الجميل ومكته من شرائه ، وأحس في أعماقه  
بفضل تلك الفتاة عليه ، وود لو أنها أمامه الآن ليقبل يدها شاكرًا  
لها هذا الصنيع ، ولذلك عندما استيقظ في الصباح ، كان أول شيء  
صنعه ، وأول عمل قام به • هو أنه أدار قرص التليفون على الرقم  
الذي أعطته إياه ، ليشكرها من صميم قلبه وليعيد إليها المبلغ ، ولكن ما إن  
فعل حتى تراخت يده في أسف شديد كاد يؤذيه في نفسه ، فقد  
اتضح أنها أعطته رقما غير رقمها ، أعطته رقما أي رقم ، أعطته رقما  
اتضح أنه لبائع لب وسوداني في ميدان السيدة ، وعرف أنها غالطته ،  
وعرف أيضا أن الذوق كان يحتم عليها أن تغالطه ، وأن الذوق كان  
يحتم عليه ألا يلح عليها هذا الالحاح الذي ضايقها وجعلها تعطي رقما مزيفاً ،  
فإن السيدة في مظهرها وفي ثقافتها هذه الواسعة ، والمأماها بالفن وأهله  
هذا اللام الذي جعلها تعرف على الفور قيمة التمثال واسم المثل وتاريخه  
وبلده ، ليست هي السيدة التي تعطيك مبلغا صغيرا في ظرف كهذا  
وتتظر رده • وأعاد السماعة إلى مكانها وشيء من الأسف يراوده ولكن  
لماذا • لا يدرى • • وعاد لمقعده ثانية ، وألقى بنظره على التمثال  
الذي وضعه في غرفة نومه بجانب سريره تماما • ليراه في كل وقت  
وفي كل لحظة ، ليراه عندما ينام ، ويراه عندما يستيقظ ، ويراه أيضا  
كلما خلا إلى نفسه ، وجلس وحيدا في غرفته هذه التي كانت إلى  
ما قبل ليلة واحدة تشبه القبر تماما وابتسم ، ابتسم من قلبه لأول مرة  
في تاريخ حياته الطويل الحافل بالقلق والضيق ، وأحس مع الابتسامة  
التي ترسم على ثغره بكثير من الاطمئنان • الاطمئنان لشيء مجهول  
وزاده اطمئنانا أنه رجع بذاكرته إلى الخلف ، الخلف البعيد ، البعيد  
جدا ، فرأى شيئا ، زاده سرورا وزاده من اطمئنانه اطمئنانا ، رأى أول  
عمره فإذا به قديم • قديم جدا يرجع إلى ما قبل مولد هذا الرجل الذي  
يبتسم أمامه ، إن هذا الرجل بعد الأربعين ، أما هو فبعد ما بكثير ، بعدها  
بخمسة سنوات على الأقل ، اذن فهو أكثر سعادة منه ، واذن فهو أكثر  
كل هذه الابتسامة التي تنير وجهه ، طريق قصيرة حقيقة ، ولكن طريقه  
ابتهاجا منه • إن الطريق التي أمام هذا الرجل الذي يبتسم لقصرها



هو أقصر ، أقصر بخمس سنوات • وخمس سنوات في حياته حمل  
ثقل ، بغض ، حمل لا يعرف كيف احتمله ؛ انه من غير شك أكثر  
سعادة من هذا الرجل ، وحانت منه التفاتة الى مرآة كانت أمامه فإذا به  
يرى وجهًا غير الذي كان يعرفه بالأمس ، وجهًا مشرق الجبين ،  
تمشت فيه الحمرة ؛ يزخر بالنشاط والحيوية ، وجهًا تتألق عليه ابتسامة  
عريضة تفوق ابتسامة هذا الرجل الذي أمامه • فأغمض عينيه ،  
أغمضهما على فرحة صادقة لأنه اطمأن • وزاده هذا الاطمئنان مع الأيام  
هناة وصحة ونشاطًا جعله يتنقل ويسهر ويؤم الأماكن العامة ، ويلبى  
دعوات الأصدقاء ويسهر أحيانًا حتى مطلع الفجر ، وكلما شعر بالضيق  
أو الملل يتسرب الى نفسه وعاد الى بيته وألقى نظرة على الرجل الذي  
يضحك بجانبه ، بجوار سريره • عاوده الهدوء والاطمئنان ونام نوما  
مريحًا ، حتى اذا ما جاء الصباح وفتح عينه على ابتسامة الرجل ابسم  
هو أيضا واستقبل اليوم كله مبتسما •

وذهب ذات ليلة الى حفلة ساهرة دعى اليها ، وكان يرحب كثيرا  
بمثل هذه المحفلات وبينما هو يضحك كالأخرين تماما ، ويرقص ويفرغ  
هذه الكأس ، ويملا غيرها • اذا به فجأة يرى وجهًا أمامه يطل عليه  
كما يطل النور من الأفق تماما ، فاضطرب قلبه من حيث لا يدري ،  
وتسمرت عيناه على وجه تلك الغادة التي أمامه تتيه دلالة وعجبا  
بجمالها وفتنة بذوقها الذي تتحدث عنه ثيابها التي زادتها فتنة وجمالا ،  
ودقق في الوجه الذي أمامه ، دقق فيه طويلا ، ولما توضحت معالمه  
لعينه خفق قلبه ، وتعال دقاته ، وهو يندفع الى صاحبه كالسهم ،  
ويقول لها على الفور ويده تمتد الى يدها :

— اننى عاتب عليك يا سيدتى •

فقال فى دهشة وهى تنظر اليه :

— من أنت ؟ •

— أنا مدين لك بمبلغ من المال •



- فازدادت دهشتها ، وقالت وهى ترد يدها دون أن تمدها اليه :
- لعلك أخطأت الفهم يا سيدتى •
- كيف ، وما زال - التمثال - فى بيتى وفى حياتى ودنياى •
- فتذكرت على الفور ومدت يدها اليه تصافحه وهى تضحك وتقول :
- لقد أعطيتك رقم التليفون ، فلماذا لم تتصل بى ؟ •
- اتصلت : ولكن ببائع اللب •
- فضحككت حتى كادت تستلقى وقالت :
- كنت أظنك أكثر ذكاء ، وفطنة من ...
- فقال وهو يضع يده فى جيبه ويقاطعها :
- وكنت أظنك ...
- ولكنها لم تجعله يتم لأنها قالت وهى تعيد يده الى جيبه :
- الايصال ليس معى الآن •
- فلم يفهم وقال :
- أى ايصال ؟ •
- ايصال هذا التعارف •
- ثم قالت وهى تنظر اليه ضاحكة • وكأنها مبتهجة بشيء :
- تصور اننى لم أعرفك •
- فقال وهو يضحك أيضا :
- ليس ذنبك ، وانما ذنب اللقاء العابر •
- أبدا • انك الآن فى صحة جيدة جدا ، حتى يخيل لى انك غير
- الرجل الذى رأيته •
- الفضل يرجع الى الطبيب الذى عالجنى •
- انه طبيب ماهر حقا • من هو ؟ •
- فقال ضاحكا وهو يشعل لها سيجارة :
- ميكلائش أعظم مثال ايطالى فى القرن التاسع عشر •
- فضحككت ، وضحك هو أيضا ، ودون أن يدري ، ودون أن



تدرى هى أيضا • وجدا نفسيهما كالغريبين عن الحفلة ، وجلسا  
فى مكان بعيد يتحدثان ، ويتحدثان طويلا ، ويتحدثان فى كل شئ ،  
قال لها أشياء كثيرة ، لا يدرى ما هى ، ولا يدرى لماذا قالها • وقالت  
هى أيضا له أشياء لا تدرى لماذا قالتها له • ولما انتهت السهرة انصرفا  
ودعته كما لو كانت تودع شخصا عزيزا وودعها هو كما لو كان يودع  
جزءا منه ، وفى الطريق رأى ذراعيه تلتفان حول صدره وكأنهما تحملان  
شيئا • ونظر الى ذلك الشئ ولكنه لم يره • نه كان داخل القلب ، لم يره  
بعينه لكنه يراه بحواسه جميعا بكل جارحة فيه ، انه يعرفه تماما • انه الشئ  
الذى ظل حياته يبحث عنه • ينقب عليه فى كل مكان • انه الآن عرف ذلك الشئ  
الذى كان يفتقده ، الذى كان يبحث عنه فى الطرقات ، وفى النوافذ ، وفى  
السماء وفى الأرض • انه ليس المرأة ، ان المرأة فى كل مكان ، وفى  
كل زمان ، فى عينه ؟ وفى جسده ؟ وفى الطريق ؟ وفى البيت ؟ وفى  
المخدع • وانه أيضا ليس الجسد ، فهو قد عرفه وخبره وأذاب على  
مذبحة العارى دماء قطرة قطرة ، قطف عليه زهرة العمر ، وحرق على  
هيكله شجرة الحياة ، زهرها وظلها وورقها حتى جذورها أيضا  
احترقت • ومع ذلك لم يجد فيه شيئا — لم يختلف جسد عن جسد  
الا كما يختلف لحم الماعز عن لحم البقر • الكل ذبيحة ؟ والكل لحم  
والكل طعام فوق المائدة المعدة للأكل ، فقط الذى يختلف هو طريقة  
تقديم الطعام • اذن ما هو الشئ الذى وجده ؟ عشر عليه • • ؟ امتلأ به  
قلبه حتى يكاد الامتلاء يرهقه فيحمله بين ذراعيه هكذا ويلفهما حوله  
فوق الصدر ؟ انه القلب • انه الحب • انه العاطفة • انه الاحساس •  
انه الشعور بانسان آخر فى حياتك لا فى دنيائك • بين جنيتك لا بين  
ذراعتك ، فى قلبك وليس فى أحضانك • انه حياتك • عاطفتك •  
وجدانك • انه قلبك الذى ان وقف لحظة ، وقف الزجود كله ، ولكن  
الى هذا الحد يكون الحب هو كل شئ فى الحياة ؟ والى هذا الحد  
يشقى المرء الذى يخطئه • ويعيش حياته معذبا • كما عاش هو حياته  
معذبا ، وعندما يعثر عليه ويظفر به ، يولد من جديد كما ولد هو



هذه الليلة • وكان قد بلغ مسكنه ودخل مخدعه ، فوقعت عينه على الرجل الذى يضحك بجانب سريريه فارتمى عليه واحتضنه وراح يقبله بقوة حتى القاعدة الحجرية التى وقف عليها ، يقبل المفتاح الذى فتح له نافذة الحياة ، اذ لولا هذا التمثال وقصة شرائه ما عثر على الشيء الذى كان يفتقده ، ولما بلغ الفراش ألقى بقلبه الهائىء عليه ومن ثم نام بجانبه • بجانب قلبه ، يناغيه ويناجيه ويهدده كأم تنام بجانب طفلها الذى ولدته • وظل كذلك الى الصباح ، الصباح الذى طلع عليه من نافذة أخرى جديدة ، نافذة قلبه هو ، قلبه الذى ضحك بعد خمسة وأربعين عاما ، ونهض من مكانه كأنه يتنقل وسط المخدع كالطائر الغرد ونظر الى الساعة فاذا بها الساعة الثامنة صباحا • وهو موعد الدواء ، ولكن أى دواء • • ولماذا يتناوله ؟ ان الدواء يتناوله المرضى فقط • أما هو فلماذا يتناوله ؟ ونظر الى طاولة كبيرة بجانب السرير ، والى زجاجات الأدوية المختلفة التى عليها ، وبدت له الزجاجات أشبه ما تكون بشيء مقرف بشيء تعافه النفس وتتقزز منه • شيء كأنه الذكرى الأليمة تماما • فأطاح بها جميعا من على الطاولة • وألقى بها من النافذة • • ان الذين صنعوا هذا الدواء ، والأطباء الذين أشاروا به ، قوم دجالون ، انهم تماما كالمشعوذين فى الريف ، أولئك يصنعون الدجل باسم الدين ، وهؤلاء يصنعونه باسم الطب ، والفرق بينهم أن أولئك يصنعونه على هيئة أحجية وتمائم • وهؤلاء يصنعونه على هيئة زجاجات وأقراص • ان الطبيب الوحيد هو • • • هو القلب • القلب الذى اذا فرع فرغت الحياة ، واذا امتلأ امتلأت الدنيا ، ونهض الى التمثال وقبله ودق الجرس فأقبل الطاهى ، فقال له :

— أريد اليوم أن آكل دجاجة ، وبعض شرائح الضأن ، وأريد أيضا من اليوم أن تصنع لى الطعام الذى تريده أنت ، لا الذى أريده أنا فدهش الطاهى وقال :

— والطبيب ؟ •



- الطيب هو أنت .. اننى أريد اليوم مع الدجاجة واللحم ،  
أيضا حمامة محشوة بالفريك • أسمع ؟ •

وأحب • وضحك وأكل وشرب ، وعاد السرور والبهجة الى قلبه  
وحياته ، وكل شيء حتى غرفة نومه ، امتلأت بزجاجات العطر بعد أن  
كانت تمتلئ بزجاجات الدواء ، والورود والرياحين حلت محل الأربطة  
والضمادات وحقائب الماء المغلى ، وراح كل ما فى البيت يتسم ويضحك  
كما يضحك هو ، وتضحك هى ، ويضحك أيضا الرجل القائم وسط  
الغرفة بجانب السرير لا يبرحه •

وضحكت الحياة ، وابتمت الدنيا • كل يوم وفى الثامنة صباحا  
عندما يستيقظ ويلقى نظرة على التمثال ، ويقبله قبله الصباح ، وتبسم  
الحياة وتضحك الدنيا فى الثامنة والنصف صباحا ، عندما يدق جرس  
التليفون فى غرفته يملأ رنينه الدنيا أنغاما وتحدثت اليه وهى مازالت فى  
فراشها ؟ فتسأل عنه وتحية تحية الصباح • وتسأله أين سيذهب  
اليوم ، ومن أى نبع من ينابيع السعادة سيفترقان اليوم ، وظل هو كذلك  
وظلت أيضا هى كذلك • ولما امتلأ الاناء بالسعادة وفاض الهناء على  
جانبه ، وتيقن ان ذلك الجزء الذى هو منه أصبح لا غناء له عنه  
وان سعادته انما فى هذا الحب ، فى هذه الفتاة التى التقى بها مصادفة ؟  
فعر معها على الشيء الذى كان يفقده وظل كل هذا العمر يبحث عنه ،  
وان سعادتها هى أيضا فى هذا الرجل الذى التقت به مصادفة وأقرضته  
مبلغا من النقود ، مبلغا معينا بالذات • حتى انها أصبحت تحب من  
النقود كل ما يساوى قيمة - نصف الجنيه - حتى لكأن نصف الجنيه  
هذا هو • • هو الدنيا • لدرجة أنها أصبحت تحتفظ بكل قطعة من  
النقود تساوى قيمتها هذا المبلغ لأنها كانت الثمن لسعادتها ، ولما تيقن  
ذلك كله ، وقال لها ذلك كله وقالت له أيضا هى ذلك كله ، فكربينه  
وبين نفسه فى شيء ، شيء هو كل شيء عنده وعندها ، أن يتزوجا ، أن  
يربط كل منهما عجلته بالآخر ، لأن فى هذه العروة الوثقى لا التى تربط بينهما  
فالرباط بينهما قائم ، وليس هناك أوثق من رباط الحب ، ولكن لأن هذا



هو ما يريد القلب حتى لا تتجمع يوما ما في أفق سمائه بعض غيوم  
المخاوف من أن يفرق بينهما أحد ، ثم أن هذه العروة هي ضرورة لكل  
قلب ، لأنها نهاية المطاف لكل حب ، وهي من غير شك ستدخل عليها  
سعادة أخرى لأن مجرد التفكير فيها أدخل على قلبه سعادة جديدة  
فلماذا لا يسارع بها حتى يحقق لها هذه السعادة ، ان غاية المحب دائما  
أن يبحث عن جديد من السعادة لمن يحب ، تماما كغاية العابد الذي يبحث  
عن الوان جديدة من العبادة يدخل بها الرضا والاطمئنان قلب المعبود ،  
ولذلك قال لها وهو يشد على يدها مودعا وهما يفترقان ذات مساء :

— غدا سأعد لك مفاجأة سارة •

فقلت ضاحكة وكانت هذه عاداتها دائما كلما تكلمت :

— لي أنا ؟ • • ؟

فقال وكأنه يلوم نفسه :

— الحقيقة هي مفاجأة سارة لي أنا •

ف نظرت اليه وكأن قلبها فهم شيئا — لأنها قالت خجلى تفض من بصرها

— طالما أنها لك أنت فقل ما هي ؟ •

— تفقد المفاجأة قيمتها •

— حتى لو كانت أكثر سرورا مما أنتظر •

فقال وكأن قلبه هو الذي يتحدث :

— ان يبيت الانسان بالأمل الحلو ، خير من أن يطمئن اليه •

فقلت ضاحكة وكانت يدها لا تزال في يده :

— اذن لن أنام حتى يجيء الغد •

ثم ضغطت على يده ، وانصرفت من أمامه كما ينصرف العصفور  
الفرح يتنقل من فنن الى فنن ، وانصرف هو الى وكره يحلق بجناحين  
من نور ، ووقعت عينه أول ما وقعت على التمثال ، فاحتضنه وقبله ،  
كما تعود أن يحتضنه ويقبله كل ليلة • ثم انصرف الى فراشه ليبيت



على الأمل الحلو ، وفى الثامنة والنصف صباحا دق جرس التليفون.  
كالعادة فششف رنينه أذان الزمن بالنغم العذب ، وتحدث اليها وتحدثت  
اليه لما تعودت ان تتحدث اليه ويتحدث اليها فى هذا الوقت المبكر من  
صباح كل يوم ، واتفقا على مكان النبع الذى سيغترفان منه هواءهما  
هذا اليوم ، وكان المكان حديقة مينا هاوس . وهناك تحت شجرة  
السرو الكبيرة جلسا يتحدثان . ويغترف كل منهما سعادته من عين.  
الآخر ، وهى تنتظر المفاجأة بصبر نافذ . وهو يمد لها فى حبل الأمل.  
الحلو الذى تعيش عليه من الأمس والذى راح قلبه يترنم به طوال الليل.  
ونظر اليها فخفق قلبها ، وهم أن يتحدث ولكنها اضطربت وودت لو  
انها تمد يدها وتقبل شفتيه حتى لا تفرقها الفرحة مرة واحدة . وبينما  
هى كذلك مرت بها احدى صديقاتها وكانت لم ترها من زمن ، فحيتها  
وصافحتها ودعتها على فنجان من القهوة ، فقبلت الفتاة الدعوة عن طيب خاطر  
وجلس الثلاثة يتحدثون . وكان فى حديث هذه الفتاة برغم ضحكها  
وابتسامتها الدائمة رنة حزن لها صدى غريب يكاد يرجعه القلب . .  
ونظر هو الى صديقتها هذه ، فرأى أمامه وجها غريبا للغاية ، وجهها  
صبيحا يفيض شبابا وحيوية وأنوثة صاخبة تكاد تتفجر نارا من كل جراحة  
فيه ، ولكن فى عينيها شيئا لعله هو الغريب فيها ؟ أو لعله هو الذى استرعى  
نظره اليها . شيئا أشبه ما يكون بالغيوم السوداء التى تتجمع وتتزاخم  
حول مطلع الهلال الوليد فتكاد تغرقه فى بحر من السواد القاتم . انها  
تضحك كما يضحكان وتتحدث كما يتحدثان ولكن هذا الضحك ليس  
مصدره القلب كما يضحك هو . وكما تضحك هدى . ان قلبها  
يكاد يكون فى تيه عن كل شئ عن الدنيا وعن الحياة وعن الوجود  
كله وأيضا عن هذا الضحك الذى يفتر عنه ثغرها . ودون أن يدري وجد  
نفسه ينظر اليها ويهتم بها وبكل خلجة من خلجاتها وبكل كلمة تصدر  
منها . ودون أن يدري أيضا وجد نفسه يتذكر حديث بائع العاديات  
معه عن اسطوانة صالح عبد الحى :

- اضحك من الفم وأبكي من صميم قلبي .



انه يرى أمامه فعلا انسانا يضحك حتى يكاد يستلقى من الضحك  
بى حين أنه يبكى حتى يرنحه البكاء ، وأثار هذا فضوله حتى أنه راح  
ينظر الى هدى من حين الى آخر وكأنه يريد أن يقول لها شيئا يمنعه  
وجود الفتاة من أن يقوله . وظل كذلك الى أن انصرفت الفتاة شاكرة  
لها هذه اللحظات التى قضتها معها . ولما انصرفت سأل هدى عنها ،  
وعن سر هذا الحزن الأسود الذى يتراكم غيوما داكنة فى عينيها  
الجميلتين ، فقضت عليه هدى قصتها وهى أن هذه الفتاة صديقتها  
منذ الطفولة ، وكانت معها فى مدرسة واحدة وخرجت معها أيضا  
فى سنة واحدة وكانت أكثر زميلاتها فرحا ومرحا وافراغ بل . الى  
ان قضت بعض الظروف التى لا دخل لها فيها من أن تتزوج رجلا  
يكبرها سنا ، رجلا فى العقد الخامس من حياته ، على حين أنها لم  
تتجاوز بعد منتصف العقد الثانى ، وأن هذا ينقص عليها حياتها الى حد  
كبير ، فهى ان تناست هذا الفارق كزوجة فلن تستطيع أن تناساه  
كامرأة وهى ان رضيت به كرجل صرخت فى وجهها الحقيقة كزوج .  
وهى ان أرادت أن تشتري حياتها وتعيش كامرأة ، ماتت كزوجة . وهى  
أيضا ان أرادت أن تعيش كزوجة ، صرخت فى أعماقها الدنيا وطالبتها  
بالحياة ، ولذلك فهى أبدا غير قادرة على أن تعيش ، وغير قادرة أيضا  
على أن تموت .

وكان هو يصغى الى حديثها هذا فى صمت شديد ولذلك قال لها :

- وهل هذا هو سر هذا الحزن الأسود الذى يتجمع غيوما داكنة

فى عينيها هاتين الجميلتين ؟ .

- انه شقوة الظمأ .

فقال فى دهشة :

- كيف تظمأ وهى تملك نهرا ؟ .

فقالت :

- ولكنه من غير ماء ، وشر ما فى الوجود أن تجدف وأنت على

اليابسة .



فنظر الى عينيها الجميلتين والنور الذى يتألق بهاء فيهما ، وقال  
وهو يرجع بصره :

- ان هذا يشقى حقيقة •
- وأشقى ما فيه الرضا به •
- فصمت حيناً ثم قال :
- ولماذا لم تطلق منه ؟ •
- لها منه طفلان •
- اذن أنجبت ؟
- فقالت :

- من سوء الحظ ان الشيء الوحيد الذى لا دخل للسن فيه هو  
الانجاب •

- فصمت ولم يجب ، ولكنه قال بعد حين :
- وهل هى تحب زوجها ؟ •
- فقالت له :

- بدليل أنها تهرم كما ترى •
- ففكر طويلاً وقال :
- وهل يهرم الحب ؟
- أجل •

فسرح ببصره طويلاً ، ثم ارتد به اليها وقال :

- كنت أظن أن شجرته تورق دائماً •
- فقالت :

- الا اذا انقطع عنها الماء ، جفت وتساقطت أوراقها •
- اذن لم يكن الحب هو كل شيء ؟ •
- انه دائماً الجسر الذى ينساب بينه النهر •
- فنظر اليها وقال :
- أى نهر ؟ •
- الذى يروى الشجرة •



فقال وهو لا يزال ينظر اليها :

• - فان جف النهر ؟

• - لم يعد نهرا

• - يكون ماذا اذن ؟

فقالت ضاحكة وهي تنظر اليه :

• - يكون كما قلت أنت الآن ، تلك الغيوم الداكنة التي تتزاحم حول

مهد الهلال الوليد فتفرقه في بحر من السواد •

فقال بعد صمت وهو ينظر الى عينيها الضاحكتين والنور الذي يشع

منهما بهاء حتى ليكاد يضيء الكون :

• - انك فيلسوفة

فاستلقت برأسها على كتفه ، وظلت تضحك ، وظل هو صامتا ،

الى أن قالت له :

• - لقد أخذنا هذا الحديث • وانسانا المفاجأة السارة التي أعددتها

لي •• قل ما هي ؟ عجل •

فقال وهو ينظر الى ساعته وينهض معها ، لأن موعد انصرافهما

كان قد حان :

• - غدا

• - غدا ماذا ؟

فنظر ثانية الى عينيها الجميلتين ، ولما رآهما أكثر صفاء ونورا ،

قال :

• - غدا سأحبك

فقالت وهي تضحك ولكن في شيء من الدهشة :

• - غدا • غدا •



— أجل •

فقلت ناظرة اليه وكانت ما تزال تضحك :

— واليوم ، وأمس • والعام السعيد الذى قضيناه • ماذا كنت تفعل اذن ؟ •

فقال وهو يجاريها فى الضحك :

— كنت أعد الصفقة •

فغضت من بصرها خجلى لأنها فهمت قصده ، وقالت متوردة  
الخد ، تنظر الى بعيد جدا حتى كأنها تنظر الى غد :

— وأعددتها ؟ •

فقال ويده ترتعش فى يدها لأول مرة :

— غدا • سأتمها •

فضغطت على يده التى كانت ترتعش فى يدها وتمتمت وهى  
تلهث فرحا ، وكأنها تخاطب نفسها :

— الى غد •

وانصرفت من امامه كالطائر الغرد الذى يتنقل من فنن الى فنن ،  
تنتظر الغد وتصنع له من حبات القلب الاكليل الذى سيتوج به فرحة  
العمر وهناءة الدنيا ، وانصرف هو الى الطريق يسير بخطى بطيئة على  
غير العادة • ومع أنه مر على داره ابتعد عنها كثيرا ، وظل يسير هكذا  
فى الظلام وكأنه يعد خطواته خطوة خطوة ، الى أن رأى امامه فى  
الطريق شيئا مستلقيا على الأرض أشبه ما يكون بجثة ميت فى ثياب  
صفراء فاقعة الصفرة ، فتأمله فاذا به ضوء شاحب مصفر ينبعث من  
قلب حانة من تلكم الحانات الرخيصة ويمتد على الأرض امامه ، ونظر  
الى الحانة التى انغلق نصف بابها بعد أن انتصف الليل ، ونظر الى  
دخان التبغ المتكاثف فى سمائها الصفراء الشاحبة والذى أضفت صففرته  
على وجوه روادها لونا من القمامة غريبا • ونظر الى حفنة من الحمالين



والحوذية وبعض من نفايات البشر تعودت أن تجلس فى هذه الحانة .  
وراهم جميعا برعم سهم المنفدمه راسمالهم الباليه يصحدون ويهرجون  
كما لو كانوا أطفالا ، وشم رائحة الخمر التى تنبعث من الحانة وكأنه  
ود لو يشرب منها كأسا ، ولكنه تردد ، وكاد ينصرف لولا أنه سمع  
شيئا انفجر فى الليل فجأة كاد يخيفه ، واذا بها جماعة السكارى تضحك  
فى صوت عال أثر نكتة ألقاها عليهم أحد الرواد . وأحس أنه يريد  
هو الآخر أن يضحك كما يضحكون ، واشتأقت نفسه الى أن يجلس  
بينهم وأن يشاركهم فى هذا الصخب والضجيج ، وفجأة وجد نفسه  
فى قلب الحانة ، ولكنه وجد نفسه أيضا مرتبكا ، فقد راحت تلك  
الجماعة تنظر اليه وكأنها تلتهم بعيونها هذا الأفندى الوسيم الذى يريد  
أن يجلس بينها ويشاركها فى هذا الخمر الرخيص ، ولكن هذا الارتباك  
تلاشى عندما رحب به الحوذى العجوز الذى جلس الى جواره ، ونظر  
هو الى الرجل العجوز الذى يحييه ، والى الخمر الرخيصة التى  
يتجرعها كأسا وراء كأس ، ودون أن يفطن الى شيء وجد نفسه  
يفعل كما يفعل العجوز تماما . القينة وراء القينة ،  
والكأس تلو كأس ، حتى سكر تماما كما سكر العجوز . وكما  
سكر كل من فى الحانة . وراح يتمايل كما يتميلون . وكأن هذا  
أطرب الحوذى العجوز فالتفت اليه وقال له وهو يترنح ، ويتمايل ذات  
اليمين وذات الشمال ، ويقدم له كأسا من زجاجته :

• اشرب •

• سكرت •

• لو انك سكرت حقيقة • لضحكت كما أضحك أنا •

• وهل تحب أنت أن أضحك ؟ •

• لدرجة أننى أشتريه كل ليلة •

فدهش وقال له :



- - تشتري ماذا ؟
- - الضحك
- - وهل يشتري الضحك ؟
- - أجل وأنا أدفع فيه كل مالى
- - ومن الذى يبيعه ؟
- فقال العجوز ضاحكا وهو يشير الى رجل يقوم على خدمتهم :
- - هذا الخمار
- فتركه حتى تجرع كأسا أخرى كانت فى يده وقال له :
- - ولماذا تريد أن تضحك ؟
- - حتى لا أبكى
- فنظر الى وجهه المتغضن ولحيته الكثة وعينه الداكنة، السواد وقال :
- - أنت فيلسوف
- فقال الحوذى العجوز وهو يستلقى ضاحكا :
- - الفيلسوف رجل واحد فقط
- - من هو ؟
- - الذى يشتري الضحك
- وكان هذا القول أعجبه ، لأنه ضحك حتى كاد يصفق بيديه ، واستدعى الخادم واشترى منه زجاجة أخرى من - الضحك - شربها مع الحوذى العجوز وهما يضحكان • وظلا يضحكان الى أن أغلقت الحانة أبوابها وانصرفا معا الى الطريق يضحكان أيضا • الى أن افترقا وهما يضحكان • وحتى لما افترقا ظل كل منهما يسير فى طريقه وهو يضحك • الى أن بلغ هو داره ، وأدار المفتاح فى الباب وهو يضحك • ولم يمنعه عن الضحك وهو يدخل سوى أنه رأى أمامه رجلا آخر يضحك فارتد مذعورا خائفا ، انه لم يكن ينتظر أنه سيجد رجلا آخر وفى غرفته وفى هذا الوقت من الليل يقف بجوار سريره ويضحك • وتأمل الرجل الذى يضحك أمامه • تأمله

طويلا حتى لكأنه لم يره من قبل ، وظل زمنا طويلا يتأمله ويدقق فيه .  
النظر انه رجل غريب عنه • رجل لم تكن له به أدنى صلة • رجل  
بشع مخيف • ولكنه لماذا هو يتشم هذه الابتسامة المخيفة • وعاد  
النظر اليه • ودقق في كل شيء فيه • انه يخيفه حقيقة • ان هذه  
الابتسامة التي تسطع نورا على وجهه انما هي ألسنة من نار تمتد اليه •  
تحرقه • • تأكل جسده أكلا • انها تكاد تجعل كل شيء فيه يرتعش •  
• ان أسنانه تكاد تصطك • ومد يده المضطربة ، وجفف العرق الغزير  
الذي تفصد من وجهه • وأغمض عينيه حينا ، ثم عاود فتحهما ولكن على نفس  
الرجل الذي كان مازال يضحك ، انه رجل بشع حقيقة ؛ مخيف حقيقة •  
ترى لماذا انقلبت سحتته الى هذا الحد • هذه البشاعة • انه لم يكن  
قط تمثالا لرجل يضحك • انه تمثال لثعبان ضخيم ، يكاد ينقض عليه  
يطبق على عنقه بفكيه • وخاف واضطرب ، وأغمض عينيه حتى لا يراه  
وأطفأ النور أيضا حتى لا يراه • • ومن ثم راح يتحسس الحائط بعيدا  
عنه • ولما ابتعد عنه راح ينزع ثيابه في الظلام ، وما أن فعل ودخل  
الفراش وأغمض عينيه حتى اطمأن شيئا ما ، وظل طويلا مغمض العينين  
ولكنه لم ينم • وأحس وهو كذلك بشيء بجواره يتحرك • انه الثعبان  
الضخم ، يقترب منه الظلام • يدنو منه • انه فكاه هذان البشعان •  
وأسنانه هذه الطويلة المدببة تدنو من كتفيه وتتحسس عنقه رويدا  
رويدا في الظلام • فأغمض عينيه مرة أخرى سريعا ودفن وجهه في  
الوسادة وراح يبكي • وطال بكأؤه • وطال تحفز الثعبان به • وهم  
ليشعل النور • ان هذا الظلام هو الآخر يخيفه • ولكن زر المصباح  
كان على الكومودينو بجوار الثعبان تماما • فماذا يفعل ، وبكى مرة  
أخرى • • وظل يبكي وهو مغمض العينين الى أن فكر في شيء آخر •  
يدق الجرس ويستدعى خادمه لينام معه • ولكن الخادم لا يبيت في  
الدار • أنه لن يجيء الا السادسة صباحا • ونظر من خلال الدرع  
الى الثعبان الضخم الرابض بجواره ، ولما وجده مازال متحفزا به يتشم  
له تلك الابتسامة المخيفة قبل أن ينقض عليه • لم يجد بدا من أن يهرب



منه • يتسلل خفية في الظلام ويغادر الغرفة ، ويفلق بابها على  
الشعبان ، حتى يجيء الخادم في الصباح ، واعتدل في مكانه وغادر  
الفراش في حذر ما بعده حذر • وراح يتحسس الباب الموصد في  
حذر أيضا ما بعده حذر • ولكنه أخطأه في الظلام ومع ذلك ظل  
يبحث عنه الى أن اهتدى اليه بعد جهد وفتحته على مصراعيه وأراد أن  
يخرج • ولكنه رأى أمامه في الظلام هوة سحيقة للغاية •• ما هذه  
الهوة التي أمامه ؟ ماهذا الفراغ المخيف الذي ينظر اليه من عل • انه  
لا يعرفه ولا يعرف ما هو • وظل كذلك الى أن عرفه آخر الأمر •  
عرفه عندما رأى بعينه شيئا ثقيلا يسقط أمامه في الليل ويتلاشى سريعا  
في تلك الهوة • عرف أنه لم يفتح الباب كما كان يريد ولكنه فتح  
النافذة • ولما عرف ذلك اطمأن اطمئنا كثيرا ، ولم يعد في حاجة الى  
أن يفتح الباب أو حتى يشعل النور ، وانما أحس أنه في حاجة شديدة  
الى أن ينام ، وما أن استلقى على الفراش حتى راح يسبح في نوم  
عميق •

ولما جاء الصباح كان لا يزال نائما لم يستيقظ بعد ، وكانت النافذة  
لا تزال مفتوحة على مصراعيها لم تغلقها يد • وكان أيضا جرس  
التليفون يدق ، ويدق منذ الثامنة والنصف صباحا ، وينساب رنينه  
المتواصل في قلب الغرفة فيذوب ويتلاشى وسط ضجيج بعض الصبية  
الذين يتشاجرون على الطوار تحت النافذة كل منهم يريد أن يستولى  
على قطعة من الحجر كانت فيما مضى رأسا لرجل يضحك •••

الترحيمة



كان اسمى فيما مضى عائشة خليل • وقالوا اننى سميت باسم  
أمى • وقال آخرون ان هذا الاسم أطلقته على المرأة التى تبتنى فى  
القرية بعد أن ماتت أمى • ولكن هذا الاسم تغير فيما بعد ، كما تغيرت  
حياتى كلها بعد ذلك التاريخ • فقد اشتغلت خادمة فى منزل عبيد أفندى  
ناظر تفتيش وقف الخصوص • ولم أكن فى يوم ما أفكر فى اننى  
سأشتغل خادمة أو اننى سأظفر بهذا العمل المريح • ولكن الذى حدث  
أنه عندما جاءت أيام الحصاد وكنا فى القرية ننتظر أيامها كلياى العيد •  
وتتشوف نحن البنات الضائعات فى القرى الى خروج أفواج التراحيل  
فى المواسم تسعى الى التفاتيش والمزارع وتمكت بالشهرين والثلاثة تضرب  
فى الحقول والوديان ثم نعود وجيوبنا محملة بالقروش والأريلة الفضية  
التي لم نرها الا فى هذه المواسم فنطعم ونكتسى ونشترى الحلوى •  
حدث أن رحلت فى ذلك العام مع أنفار الترحيلة الى بلاد وتفتيش كثيرة  
ثم استقر بنا المقام فى تفتيش وقف الخصوص •

حقيقة كانت الطريق طويلة والرحلة شاقة كلفتنا الكثير من الصعاب  
فقد مكثنا ستة أيام وست ليل نسير على أقدامنا فى حر الهاجرة المميت ،  
وكنا أكثر من مائتى فتاة ومائة فتى ، ودائما كان عدد الفتيات فى التراحيل  
يزيد على عدد الفتيان ، لأنهن كما كنت أسمع أكثر جلدا على تحمل  
المتاعب ، وكانت الرحلة لطيفة تغلبنا على متاعبها كالعادة ، لأنه كان  
المفروض علينا أن نتغلب على المتاعب أيا كانت ، فكنا نضحك ونغنى ونطرب  
واذا جاء الليل افترشنا أرض أى حقل قابلنا ، طالما هو بجوار مصرف  
أو ترعة أو نبع يجرى فيه الماء • وكنا ننام كالقطيع فتيانا وفتيات ونساء  
ورجالا ، وكهولا وعجائز • وكان يحضن بعضنا البعض الآخر ويتلاصق  
فيه من شدة الصقيع اذا كان الطقس باردا • أو تعرى وتنزع بعض  
ثيابنا ونحن نلهث كالنعاج فى قلب المراعى اذا كان الجو حارا دون أن

يعكر صفونا معكر • حقيقة كانت بعض الكباش تنتهز فرصة العتمة والتعب والاستغراف في النوم ، وترفع فرونها في الظلام ، ولكن يقظة النعاج كانت لها دائما بالمرصاد • فما ان نزوم نعجة في الليل حتى تزوم النعاج جميعا ويتعالى صوتها فيضطرب جبل القطيع كله كما لو كان قد سقط ذئب في قلبه وعند ذلك تتراجع تلك الكباش سريعا وتنام فوق التراب وتظل كذلك مغمضة العين الى الصباح • وقد انتهت الرحلة دون أن يحدث ما يعوقها اللهم الا بعض أحداث صغيرة حدثت ، ولكننا تغلبنا عليها أيضا • إنه ما من حادث يحدث الا تغلبنا عليه • فمثلا حدث أن سرقت زوادة فهيمة أم علي ، وفقد الجوال بما فيه وسرقة زوادة واحدة منا شيء ليس هناك أبشع منه ولا حتى الموت ، فهي اما أن تجوع طيلة الشهور الثلاثة أو ما يقاربها وهذا شيء لا يقدر عليه انسان ، واما أن تقطع الرحلة وترجع ومعنى ذلك أن تحرم فرحة العيد الأكبر الذي كنا نقضي العام في انتظاره ، لأن عيدنا في القرية الذي كنا ننتظره هو عيد الترحيلة وليس عيد الفطر أو عيد الأضحى ، وهي ان لم تفعل هذا أو ذاك واقتضت من عم متولى ريس الأنفار تشتري الرغيف من السوق لتأكل فمعنى ذلك أنها ستفق على طعامها كل يوم نصف الخمسة قروش وهي الأجر الذي كانت الواحدة منا تتقاضاه في اليوم • وبكت فهيمة بكاء مرا ورحنا جميعا ننظر في حسرة الى عينيها المحمرتين وقطرات الدموع التي تساقط منهما وكأنها نقاط من الدم دون أن نقدر على أن نصنع لها شيئا فقد كانت زوادة كل منا مقدرة بمقدار أيام الشهر لا تزيد أو تنقص عنها شيئا • ومقدرة أيضا بمقدار آخر لا يزيد أو ينقص عن ساعات اليوم ، ومقسمة عليه برغيفين ونصف الرغيف ، وهذا النصف هو الذي تتكون منه وجبة الافطار • فاذا ما نقص هذا المقدار ولو نصف الرغيف فسوف تحرم الواحدة منا طعامها نصف اليوم تماما • وفكرنا في هذا كله وأجهدنا التفكير دون أن نقدر على أن نصنع لها شيئا • ولكن الشقاء دائما اذا كان كبيرا كان الجلد على احتماله كبيرا أيضا • واحتمالك للشيء معناه القدرة عليه • هكذا علمنا الشقاء نفسه • ولذلك كانت فرحتنا كبيرة



عندما تقدمت احدى الزميلات بعد ان رات بؤس الفتاة وشقوة حالها .  
واقترحت علينا ان نشارك الفتاة جوعها وان تشاركنا هي شبعنا ، وسرعان  
ما صادف هذا الاقتراح هوى من نفوسنا جميعا فاعطتها كل واحدة  
منا رغيفا أما قطع الجبن ومخلل الكرنب واللفت وأعواد الجلاوين فقد  
اغدقناها عليها اغداقا . لان الغموس كان لا يهمنا بقدر ما كان يهمنا الشيء  
الذى نغمسه فيه . وبذلك رجعت اليها حياتها ورجع اليها أيضا قلبها .  
بعد أن تضخم جوالها ، تضخمت معه الفرحة البالغة في قلبها وفي قلوبنا  
جميعا . وكذلك لم نجعلها طيلة الرحلة تشعر بأنها تنقص عنا شيئا ،  
حتى أننا عندما مررنا على أحد الأسواق غي طريقنا ، واشتركت جماعة  
منا ودفعت كل واحدة منا نصف قرش واشترينا كحكة كبيرة من  
العيش « الفرنجييلة » - وهو الذى يطلقون عليه فى البندر - الخبز  
الافرنجى - أشركناها معنا فى الغموس منه ، وأقول الغموس منه  
لأننا كنا لا نأكل هذا العيش اذا ظفرنا به وانما نأكل عيشنا حتى لانحرم  
سريعا لذة طعمه ، وانما كنا نقطعه قطعا صغيرة ونضعه فى اناء كبير ،  
ونغمسه فى الماء حتى يذوب ، ثم نغمس عيشنا فيه ونأكل . ومع أن هذه  
لذة كبيرة فانها مع الأسف كانت لا تتاح لنا الا نادرا .

وهكذا مر هذا الحادث ، حادث فقد زوادة فهيمة بسلام ، وتغلبنا  
عليه ، غير أنه قبل أن نبلغ التفيتش بيومين ، حدث حادث آخر كان  
لا يقل بشاعة عن سابقه ، فقد حدث أن مرضت وردة ، واشتدت مضاعفات  
علتها فجأة ، ومع أنها كانت من بدء الرحلة ، بل ومن قبل أن تغادر  
القرية بأيام مصفرة الوجه شاحبة النظرات تتأبها من حين الى آخر رجفة  
تهز كيائها كله . فانها كانت تأمل القدرة على العمل ، غير أن حرارتها  
ارتفعت فجأة فى الطريق ، وارتفعت الى حد مخيف ، وراحت تقي من  
حين الى آخر وتتأبها من حين الى آخر أيضا اغماء تفقدها وعيها الى  
حين ، وقد صنعنا لها أشياء كثيرة ، وضعنا على يافوخها الذى كان يحترق  
- لبخة - من أوراق الرجلة ، وأطعمناها عدة رؤوس من الثوم لتخفف  
حدة المنص الذى كاد يقطع أحشاءها ، كما كسرنا لها بصلة كبيرة على

رأسها ونسكنا ماءها الحار على منحاريها حتى شرت به خياشيمها ، كما  
تبرع لها عم مثولي الريس ببرشامة من عنده • ومع ذلك لم تخف حدة  
آلامها بل زادت الى حد مرعب حتى رحت وأنا بجوارها ممسكة بيديها  
الباردين أبكى وأنتحب • فقد كنت وردة صديقة عزيزة تربطني بها  
صلة الرحمة كما تربط الأخوة صلة الرحم تماما • فقد ماتت أمها كما  
ماتت أمي • وتيمتت كما تيمتت ، وعاشت هي في القرية عبثا على الغير كما  
عشت أنا تماما • ولذلك كنت أحبها من قلبي وظللت أحبها حتى طيلة  
السنة الماضية التي غابت فيها عن القرية ولا أدري أين كانت ، وحتى في  
تلك السنة كنت أيضا أحبها ، ونظرت اليها وهي مسجدة أمامي على الأرض  
مغمضة العينين وعاودني البكاء ولكنها فتحت عينيها وأشارت الى يدها  
المرتعشة أن أعاونها على النهوض حتى تدخل مزرعة الأذرة لتقضي أمرا •  
وما أن فعلت وسرت بجوارها وهي مرتمية على صدري حتى انطلقت مني  
صرخة في الليل ولكنها مدت يدها سريعا وكتمت أنفاسي حتى لا يسمعا  
أحد • فقد رأيت سروالها ونصف جلبابها الأسفل يسبحان في لجة من  
الدم • فقلت ذاهلة :

— انت مجروحة !

فلم تجب وانما تمتمت وهي تسقط من يدي على الأرض في قلب  
الأذرة بهذه الكلمات التي لم أفهم لها معنى حتى الآن :

— قالت لي خالتي زينب في القرية ان عود الملوخية هو الذي ينهي  
المشكلة •

وظننتها تريد مني أن أجمع لها بعض أعواد الملوخية من الحقل ،  
فأسرعت لأجىء لها بما تريد ، ولكنها أمسكت بذراعي وضغطت عليهما  
في عنف وهي تتلوى ، وفجأة انقلبت سحنتها وخبخت عيناها جحوظا  
مخيفا في الليل حتى غدت أشبه بعيني قطعة تموت وتكورت في نفسها  
حتى غدت كالكرة تماما ثم فجأة انفردت صارخة وهي تغوص بيديها  
في الطين ووجهها كذلك فحفت خوفا شديدا وارتعدت أوصالي وأنا أنتزع  
بكل قوتي وجهها المدفون في الأرض وأخرج بأصابعي الطين الذي



حشى به ثغرها ، ورحت فى ذهول شديد أسألها عما بها فراحت تقول  
كلما يشبه الآنين تماما ولذلك لم أسمع منه شيئا ، ولكنى عندما وضعت  
أذنى على شفيتها لأسألها ماذا تقول ، سمعتها تتمم فى نبرات متقطعة بعض  
كلمات كثيرة •

كل الذى استوعبته أذناى منها قولها :

— قال لى انه سيتزوجنى •

فعرفت على الفور سر وجميعتها وقلت لها وأنا ألطم خدى لسناجتنا  
وقلة عقلنا نحن الفتيات الطيبات :

آلان واحدا وعدك بالزواج وتخلي عنك تصنعين فى نفسك  
كل هذا ! •

فنظرت الى بعينيهما الجاحظتين ، وعلت ثغرها ابتسامة شاحبة ،  
وصمتت • وظلت صامتا ، وظلت أيضا الابتسامة الشاحبة فوق ثغرها  
الملوث بالطين ولم تقل شيئا ولم تأت بأدنى حركة • وكل الذى حدث  
أن ذراعها التى كانت على كفى سقطت فجأة على الأرض ، كما سقط  
رأسها أيضا من على فخدى واستقر على الأرض • ونظرت اليها فاذا بها  
كما هى تنظر الى جاحظة العينين وتبتسم لى تلك الابتسامة الشاحبة التى  
استقرت على شفيتها الملوئين بالطين ، فخفت وارتعدت فرائصى ، وصرخت  
فى وجهها دون وعى :

— وردة • تكلمى •

فلم تجب ، فإزداد جنونى وصرخت ثانية بأعلى صوتى وكأننى  
أستغيث :

— تكلمى • أنا عائشة • أنا خائفة منك ••

لقد كانت هذه أول مرة فى حياتى أرى فيها انسانا يموت ، ولذلك  
ظللت أصرخ فى وجهها وأنا أهزه فى عنف دون أن تكلمنى •

ولكنها قط لم تجب •

ولقد أحدث موت وردة في نفوسنا جميعا اضطرابا شديدا وآلما  
لا حد لها ، ولم يكن الحزن على موتها بقدر ما كان الارتباك الذي أوقعتنا  
فيه الجثة اذ كيف نتصرف فيها • وهل نحملها معنا أم نتركها في العراء •  
ولكن عم متولى تصرف تصرفا طيبا ، وضع الجثة تحت شجرة سسند  
كبيرة وغطاها ببعض أوراق الشجر ، ثم ذهب الى أقرب قرية مجاورة  
وأبلغ العمدة ، ولما عاد اختارني أنا بالذات أو أنا التي فضلت أن أبقى  
بجوار الجثة طالما أن الترحيلة ستواصل رحلتها حتى يجيء العمدة  
وأهل الخير ويدفنوها ، ولكن الذي حدث كان أكثر بشاعة من الموت  
نفسه ، فقد حضر العمدة على الفور ومعه بعض الخفراء ، ووصلت في  
أثرهم مباشرة سيارة سوداء كبيرة كريهة اللون ، وهبط منها رجل بدين  
عرفت أنه الطبيب ، وما أن اقترب من الجثة ورفع ذلك الغطاء الملوث  
بالدماء وهو قطعة من ثيابها ألقيت على وجهها حتى لا تظل ترعبنى تلك  
الابتسامة التي مازالت منطبعة على الشفافة الملوثة بالطين ، ورأى العينين  
البارزتين ، والزرقاء التي تمشت في الوجه والجسد كله ، حتى أعاد الغطاء  
ثانية ، وهو يتمم بالفاظ لم أسمعها لرجل كان بجانبه وما هي الا لحظات  
حتى ألقيت الجثة داخل تلك السيارة أما أنا فقد أمسك بي أحد الخفراء  
من يدي ، وألقى بي القاء داخل ذلك العجب المظلم وهو قلب السيارة  
بجوار الجثة ، ثم انطلقت بنا السيارة ولكن الى أين لا أدري • وكل الذي  
عرفته عندما فتح باب السيارة الخلفي ورأيت النور ، وجدت نفسي في  
فناء مبنى كبير عرفت بأنه مستشفى ورأيت بعض النسوة والأطفال  
والعجائز يكون ويولولون ، وجاءت عربة صغيرة بعجلتين يدفعها رجل  
يسروال أبيض فضفاض ملوث بالدماء ، وأمسك بحلقة في قلب  
السيارة وشدها اليه فاذا بالجثة منطرحه عارية على عربة الصغيرة ، ثم  
دفعها أمامه وهو يتحدث الى بعض النسوة والعجائز ويضحك وكأنه  
لا يدفع أمامه جثة الى أن دخل بها الى عنبر كبير في مواجهة الفناء • أما  
أنا فقد عاد الخفير وأمسك بيدي وظل ممسكا بها كما لو كان يخشى أن  
أفلت منه • ومكثنا كذلك حيناً ، الى أن رأيت فجأة باب العنبر يفتح ،



ويخرج منه نفس الرجل يدفع العربة وعليها شيء لم أتبينه في أول الأمر  
لأنه كان مغطى بغطاء من المشمع الأسود ، ولكنه عندما اقترب منا ومر من  
أمامنا متجها الى بعيد رأيت بعض نقاط الدم تسيل وتتساقط من العربة  
على ارض الفناء ، فصرخت وولولت متحبة ولكن الخفير اسرع ولطمني  
على وجهي لطمة موجعة فصمت على الفور . وظللت صامتة وظل هو  
ممسكا بيدي الى أن جاء رجل طويل فارغ الطول يحشو جيب مريئته  
البيضاء بعدة أوراق ، وأمسك بيده ورقة ووضع في أذنه قلما ، واقترب  
مني وقال :

— ماذا تبقى لك ؟

فارتبكت ولكني نطقت على الفور وقلت :

— أختي .

ولم أكن في ذلك أعنى سوى حبي لها ، وصلة اليتيم والبؤس التي  
ربطت بيننا ، وأخيرا هذا الشقاء الذي شاركناها فيه ، قلت ذلك فنظر الى  
الرجل لحظة ثم قال :

— أبوك موجود ؟

— لا .

— وأمك ؟

— ماتت .

— من الذي يعولك ؟

— ربنا .

فارتسم شيء من الجزن على وجه الرجل وقال وهو ينظر في الورقة  
التي في يده :

— أسباب الوفاة ؟

ثم استطرد يقرأ :

- اجهاض أدى الى تهتك فى الرحم ونزيف حاد ونتجت عنه  
الوفاة •

فلم أفهم شيئا مما قال ، ولذلك قلت :

- يعنى ايه ؟

فقال وهو يشيح بوجهه عنى وينصرف الى امرأة أخرى كانت تبكى  
- بقى أختك كانت حبلى !

فشهقت ودارت بى الأرض ، ولم أعد أسمع شيئا ولا حتى صوت  
الخفير وهو يترك يدى ويأذن لى بالانصراف •

ووجدت نفسى فى العراء اسير وحدى ، وظلمت أسير وظلمت الدموع  
تروح وتجىء فى عيني ، وعدة اشباح تتراصص أمامى ، وكلمات تطرق  
أذنى من ان الى اخر ... وجه تمشت فيه زرقة مخيفة ، ثغر محشو  
بالطين ، انين يصم الاذان ، صراخ لا يكاد يسمع ، جسد يتكور كما يتكور  
القنفذ تماما • ثم ينفرد صارخا كما ينطلق السهم فى الفضاء ••  
عود من الملوخية ينهى المشكلة ••• قال لى انه سيتزوجنى ••• عينان  
بارزتان جاحظتان ••• شفتان ملوثتان بالطين وتنشقان عن فجوة مظلمة  
كثيفة وتقعده عليهما ابتسامة مخيفة لا تترجح كما تقعد البومة فوق فجوة  
فى حائط مهديم ••• سيارة سوداء كريهة رجل بدين رجل آخر يدفع  
جثة على عربة صغيرة ••• نفس الرجل يعود بالجثة مبقورة البطن تنزف  
منها الدماء وتسيل من العربة على الأرض ••• كلام  
لا أفهمه ، وكلام غيره لا أعيه •• كلام آخر يخرم أذنى ••• أختك  
حبلى •• وشعرت وأنا أسير بضيق شديد • وأحسست ببغض وكرهية  
لا حد لهما لكل رجال قريتنا وشبابها • ورحت أراهم وأرى وجوههم ،  
ولا سيما الذين كانوا يتندرون معنا ويخصون وردة بالذات بابتساماتهم  
وأحاديثهم العذبة ورأيت وجه على وحميدة ومحمود ، وعبد الستار ،  
وأبو سنة ، وزيدان ، وخطاب ، واليلى ، وسالم ، و خليل ، وعبد الغنى ،  
رأيت وجوههم جميعا وتبدت لى كوجوه الكلاب الضالة أو الثعابين الجائعة



فبكيت ، وبكيت بكاء شديدا ، ولم أبك هذه المرة من أجل وردة كما كنت أبكى طوال النهار . وانمسا بكيت من أجل نفسي ، اذ أين أذهب وأين أقيم ، ان لم أرجع ثانية الى القرية التى كرهت أهلها .

وظللت أسير ، وظلت هذه الأشباح تطاردنى ، وهذه الكلمات تطرق أذنى ، وتلك الوجوه التى تشبه الكلاب والثعابين تطالغنى أينما تلفت ، كما ظلت الدموع تروح وتجىء فى عيني ، وتتساقط حينا حتى تسيل على صدرى وتبتل بهساتيابى ، وتجف حينا حتى تحترق عيني ، الى أن بلغت التفتيش ، ورأيت عند أقصى ما تصل اليه نظراتى التى أتعبتها الدموع ظللا صغيرة أشبه ما تكون على الأرض الخضراء وآكوام الحصاد الناصعة بالنقط السوداء التى لوئت الثوب النظيف . فعرفت فيها لداتى وأثرابى وأهلى وعشيرتى . ففرحت وهزتنى هذه الفرحة وفاضت على قلبى سرورا وسعادة عندما بلغت جموعهم ، ووجدت جوال زوادتى كما هو لم يمس .

كان التفتيش كبيرا وكانت مساحته واسعة لا تحد ، وكان العمل فيه مريحا شأن العمل فى الوسايا جميعا ، ولكن الشئ الذى كان يضايقنا ولا سيما اذا اشتدت وطأة الحر هو ابتعاد الحقل الذى نعمل فيه عن مجرى الماء العذب ، وكان هذا يسبب لنا ارهاقا لا يطاق ، ولكن عم متولى بالاتفاق مع الناظر قد استطاع أن يحل لنا هذا الاشكال فقد أوقف عشرا من الفتيات الأشداء وكنت أنا منهم على نقل الماء بالجرار من النبع الى الأنفار فى الحقل . وكان النبع على مسيرة نصف ساعة من الحقل ، وكان مكانه جميلا . فقد انبثقت العين وسط بناء قديم مهدم . وقد أقيمت فوقه مظلة كبيرة أو قمرية وارفة الظل هى التى أعدت استراحة للناظر الذى كان دائما لا يرى الا فيها أما ينظر بنظارته المعظمة الى الأعمال التى تجرى حوله فى الحقول ، واما ممسكا بمسبحته الكبيرة يدير حباتها بين أصابعه ، وهو يذكر اسم الله ، واما يصلى اذا حانت الصلاة ، وكان الرجل لطيفا مرحا يميل الى الدعابة رغم سنه التى تكاد تقارب سن عم متولى العجوز . وكان عطوفا يحب الخير ، ويحب أن

يتصدق على الناس ولا سيما علينا نحن فتيات الترحيلة البائسات عندما  
نجىء نملأ الجرار من النبع • فقد كان يلاطفنا ويشجعنا على تحمل  
الشقاء الذى نعيش فيه و كان كثيرا ما يتناول غذاء الشهى فى القمرية  
فكان لا يأكل منه الا القليل ثم يتصدق علينا بكل ما تبقى منه ، وكان كثيرا  
ولذيذا وشهى الطعم ، وما زلت اذكر اللحظة التى أشار الى فيها ذات مرة  
فصعدت اليه فى القمرية وكان يتناول غذاءه ، فناولنى رغيفا طريا محشوا  
بالأرز ، ولما انفردت بالرغيف فى الطريق ، ورحت ألتهمه وجدت فى  
قلبه شيئا ما كنت لأتصور أننى سأأجده فى يوم ما ، وهو ورك دجاجة  
سمينة كان مجرد رؤية لونه الذى يشبه تماما لون الورد يدخل الفرحة  
على النفس ، ولو يدرى السعادة التى فاضت على قلبى فى ذلك اليوم بعد  
أن التهمت كل شيء حتى العظم الذى قدرت عليه أسناني ؛ أو لو عرف  
عدد الدعوات الطيبات التى دعوتها له من قلبى شكرا على هذا الصنيع ،  
ما بخل على مرة أخرى بمثل هذه الصدقة • والغريب الذى دهشت له أن  
دعواتى جميعا قد استجبت حتى لكأن أبواب السماء لحظتها كانت مفتحة  
لى وحدى • فقد حدث أن طلب الناظر من عم متولى أن يختار له فتاة  
من فتيات الترحيلة تتردد على بيته من حين الى آخر لتنظف له البيت  
وتملأ له الماء ، وتغسل الثياب • فقد كان الرجل وحيدا فى دنياه لا عائل  
له ولا معين ، فوق الاختيار على ، ولم تكن فرحتى بهذا الذى حدث  
تساوى شيئا بجانب فرحتى برضاء الناظر عني واعجابه بمهارتى فى تنظيف  
البيت وغسل الثياب • كانت فرحتى بهذا تفوق كل شيء حتى لذتى بالطعام  
الشهى الذى كنت أتناوله فى بيته • وكان يجلبه بنفسه من السوق أو  
أصنع أنا بعضا منه ، بمهارتى وحرصى الشديد على أن أكون عند حسن  
ظنه • وكان لا يقلقنى فى ذلك سوى مرور الأيام سريعا واقتراب ذلك  
الشبح المخيف وهو انتهاء أيام الترحيلة وعودتنا الى بلادنا ، وجرمانى  
من كل هذا النعيم • وظلمت هكذا أتعذب كلما اقتربت أيام الرحيل ، ولكن  
الله الذى وسعت رحمته كل شيء أثبت الا أن تملأ قلب الرجل أيضا رحمة  
واسفا وعظما كبيرا • فقد فاجأنى الرجل ذات صباح وكنت أصيب له الماء  
على قدميه ليتوضأ :



— غدا ستتهى أعمال الترحيلة ، وترحل الأنفار الى بلادها • فماذا أنت فاعلة ؟

فأمسكت أنفاسى وتلعثمت وأنا أنطق بصوت خافت لا تكاد أذنى تسمعه :

— ما تأمر أنت به •

فصمت حيناً مفكراً ثم قال :

— أنا لا أعرف ظروفك •

فقلت وأبريق الماء يرتعش فى يدى :

— أسعد لحظأتى هى التى قضيتها خادمة لك •

— وأهلك !

— لا أهل لى •

ووطنك !

— هو الذى أجده فيه لقمة العيش •

ثم قصصت عليه طرفاً من حياتى البائسة • فتألم الرجل وتغضن وجهه وقال بصوت خافت وهو ينهض ويتناول حصيرة الصلاة :

— على بركة الله •

ولم أدر ما الذى فعلته بعد أن سمعت هذا القول ، ولكن الذى ما زلت أذكره هو أنى رأيت عبيد أفندى وكان طويلاً عملاقاً ينحنى على الأرض ويمسك بكتفى ويرفع وجهى المبلل بالدموع من فوق قدميه التى كنت أقبلهما •

لم يعتبرنى الرجل بعد ذلك خادمة فى بيته كما كنت عندما دخلت بيته أول يوم ، وإنما اعتبرنى ابنته تماماً • يرعانى ويحرص على ويطعمنى مما يطعم منه ، وإذا مرضت فهو الطبيب ، وإذا شفيت فهو الصحيح المعافى وراح يستجلب لى كل ما يدخل الفرحة على قلبى الثياب الحريرية ذات الألوان الزاهية ، حتى الملابس الداخلية كان لا يستجلبها لى الا من الحرير الخالص ، وكانت النقود معى دائماً يقدقها على بكثرة فكنت أشتري

كل ما أريد من مناديل الرأس المزركشة بالترتر وحبات القرنفل وخرج  
النخف ، والأمشاط أو الخواتم وعقود الرقبة ذات الألوان البراقة ،  
والحبات المتلألئة التي تروح وتجيء على الصدر ، وقطع الحلوى والصابون  
الممسلك واللبان الذي كنت أفرقه طوال النهار بين شذقي فتحدث فرقه  
في أذني صوتا يفيض على القلب ويملؤه سرورا وبهجة . وكذلك لم تمر  
ثلاثة أشهر فقط حتى رأيت شيئا غريبا وعرفت شيئا أكثر غرابة ، وهو  
أن الفقر والبؤس والشقاء إنما هو حرب عوان على الجمال والفتنة  
والشباب الفتى . لقد كنت فيما مضى أشبه بقطعة من الحديد مطمورة في  
التراب ، كالحة اللون ، صدئة البشرة نحاسية النظرات . أما اليوم  
فقد نظرت الى نفسي في المرآة ولما يمض على هذا النعيم سوى شهور  
ثلاثة فاذا أنا إنسانة أخرى لا صلة لها أبدا بعائشة خليل التي كانت .  
جمال وفتنة وأنوثة وشباب فائر يسطخب في كياني ويكاد يتفجر دما  
من خدي ونورا من شفتي . نظرت الى ذلك وفرحة لم يستشعرها  
قلبي من قبل ، هي في فرحة الشباب والصحة ونعيم العمر ، ونظرت فيما  
نظرت الى أشياء كثيرة وتأملت أشياء كثيرة ، وأطلت النظر حتى أنني  
أحسست بما يشبه الحب لذلك الشخص الذي أمامي في المرآة ، فتضرج  
وجهي خجلا ، وازداد هذا الخجل وأنا أبعد بفسى من أمامه محتضنة  
ذراعي في حنان وفرحة غامرة صدرى محتوية بين الذراعين ما عليه من  
ثمرتين ناضجتين ولم أفطن أنا وحدي الى هذا كله ، وإنما فطن اليه  
أيضا أفندي . اذ قال لي يوما بأنه سعيد اذ يرى دائما ثمار الشجرة  
التي يرعاها قد نضجت وطاب أكلها . ولست أدري لماذا كان يسعدني  
هذا القول ، ويسعدني الى حد كبير وتزداد سعادتي  
كلما رأيته ينظر الى ويتأملني في ابتهاج وسرور كان لا يعبر عنهما  
الا بالنظر فقط ، حتى أنه سألني يوما وكنت أعد له الغداء ، وكان من  
عادته أن يأكل كثيرا . فقد كانت الدجاجة الواحدة لا تكفيه ، فكنت أضع  
له في وجبة الغداء ثلاث دجاجات كنت أشاركه في واحدة منها قال لي :

— هل أنت سعيدة يا عائشة ؟ .



فقلت ضاحكة والبشر يتفجر نورا من عيني :

— كما ترى •

فقال بعد أن فكر قليلا :

— من نعمة الله على ، وعليك أنت أيضا كما أظن • أنا نمائل بعضنا  
في أشياء كثيرة •

فقلت خجلة :

— العفو • يكفي أنك أنت سيدي •

— السيد هو الله يا ابنتي •

ثم صمت لحظات وقال :

— انت كما عرفت لا أحد لك في هذه الدنيا • وأنا كذلك لا أحد  
لي ، فما رأيك لو عطف كل منا على الآخر • ونظل الى الأبد ، أن نرتبط  
بعروة لا تنفصم •

فلم أفهم قصده ، وقلت :

— كل الذي يرضيك يسعدني أن أنفذه •

فنطق وعيناه الى بعيد هذه المرة :

— أريد أن أتزوجك •

وكانت مفاجأة لم تخطر لي على بال ، فانعقد لساني ولم أجب

ورأيت الدموع تنسال من عيني دون أن أدري •

فقال وهو ينظر الى هذه المرة :

— أترفضين ؟!

فلم أجب •

فقال ثانية وهو يربت على كتفي في حنان لا حد له :

— لماذا تبكين ؟

— لأنني لم أصدق ما أسمع •

فقال على الفور فرحا :

- اذن أنت توافقين ؟!

- قلت لك أننى لا أصدق ما أسمع

- لماذا ؟!

- أأتزوج سيدى ؟!

فقال وهو يمد ذراعيه الى كفى ويطبع على شفتى قبلة :

- قلت لك السيد هو الله •

ثم قال :

- فقط سوف يكون هذا سرا الى حين • وسأسافر معك الى بلد

بعيد لنعقد العقد • أنت لا تعرفين أهل الريف ولاألستهم الحداد • سوف

يقولون تزوج خادمته وأنا لا أريد أن تلحق بك هذه الصفة •

فتمتت وكنت لا أزال أبكى :

- افعل كل ما تريد •

فقال :

- واسمك من الآن - عايده عييد - وليس عائشة خليل •

ثم تركنى وخرج ، وبقيت وحدى فى البيت أشبه بالحمامة السجينة.

التي تريد أن تنطلق بجناحيها لتعلن للطبيعة فرحتها •

ولما عاد مع العصر وكان من عادته أن يعود فى هذا الوقت ليستريح

قليلا ، رأيته متوعلك المزاج ويحمل فى يده لفافة ، فاضطربت وسألته.

عما به فقال لا شيء وانما هى وعكة خفيفة ، وقد جئت لها بهذا الدواء ،

وناولنى اللفافة التى كان بداخلها دواء أحمر اللون ، وطلب منى كوبا.

فارغا ، وأفرغ من الزجاجاة وشرب ، ولا حظت أنه بعد أن شرب هذا

الدواء ؛ انطلقت أساريره وابتهجت نظراته • وزاد ابتهاجه وهو ينظر

الى ويتأملنى ، وشعرت بشيء من الخجل وأنا أرى عينيه تكادان تحترقن.

صدرى وأنا أصب على يديه الماء ليغتسل قبل أن يخرج مع المغرب • ومع

أننى خجلت حقيقة شعرت بالفرحة الكبرى تفيض على ، ولما تأهب للخروج

لم ينس أن يقبلنى مرة أخرى ولمست أدرى لماذا شعرت هذه المرة.



باضطراب لا حد له ، ولا سيما عندما سقطت يده من على كتفى مصادفة . واستقرت فوق الظهر • ووقفت أمامه صامتة أشسبه ما أكون بتمثال • وظللت كذلك الى أن قال وهو يهمس فى أذنى ويفتح الباب ويخرج :  
- لا تنامى سوف أعود مبكرا •

كانت هذه الكلمة بمثابة حجر ضخمة ألقي فى يم حياتى ، وبطبيعة الحال لم انم • وبطبيعة الحال ظل قلبى يدق دفا عنيفا ، وظللت كذلك احلق بجناحى فى قلب هذا القفص وهو البيت الصغير الذى احتوانى • ولست أدري لماذا أردت أن أستحم قبل أن انام ، او بمعنى أصح قبل أن يجرى • ولست أدري أيضا لماذا اتقيت افخر أثوابى الحريرية ، وارتديتها ، وكذلك ومن غير قصد وقفت قرابة الساعة الكاملة أمام المراة ، وظللت كذلك الى أن شعرت فجأة بشيء من الضيق حاولت أن أعرف مصدره ولكنى لم أوفق غير أنني أدركت السبب • وهو لماذا تأخر الى هذا الوقت ، ولم يجرى مبكرا كما قال ، وأحسست أن الليل قد انتصف أو كاد ولكنى لما نظرت الى الساعة وجدتها لم تبلغ بعد الثامنة مساء وأن صلاة العشاء لم تحن بعد ، وهو قد تعود أن يصلى العشاء جماعة مع أهل التفتيش فى المسجد • فاطمأن قلبى وانفرجت أسارىرى • بيد أن قلبى خفق فجأة عندما سمعت الباب يدق ، انه لم يصل العشاء فى المسجد هذه الليلة ، وهو سيصلها هنا فى البيت وذهبت الى الباب وارتعشت يدى وأنا أمدتها وأفتح • ووجهى الى الأرض خجلا أن يفتن الى زينتى فى هذه الليلة بالذات ، ولكنى وجدت أمامى امرأة عجوزا من أهل الريف لم أرها من قبل ، تسألنى سؤالا غريبا :

- اننى أريد الست وداد •

- من وداد ؟!

- التى تعمل هنا فى هذا البيت •

- ليس هنا واحدة بهذا الاسم •

فارتسمت الدهشة على وجه المرأة ، وقالت وهى تدقق فى النظر :

- كيف ؟ لقد كانت تعمل هنا أربعة شهور ، وكنت أتردد عليها .  
لأبيع لها البيض والزبد •

ولما لم أجب • استطردت المرأة تقول :

- كان اسمها من قبل أن تعمل في بيت الناظر - وردة - ولكنه .  
أطلق عليها اسم وداد •

وفتحت عيني ذاهلة ، فلم أر وجه المرأة التي كنت تتحدث الى ،  
وانما وجدت مكانه وجها جحظت عيناه جحوظا غريبا ، وتمشت الزرقة .  
فيه ، ورأيت شفاها ملوثة بالطين ترتسم عليها ابتسامة مخيفة ، فصرخت  
وظلمت أصرخ وأنا أركض خائفة أمام هذا الوجه • وقد وضعت  
يدي فوق عيني حتى لا أرى هذا الوجه الذي يخيفني ، وظلمت أركض  
حتى وجدت نفسي فجأة ، في لجة ليل حالك السواد ، أضرب فيه على .  
غير هدى ، ورأيتني قد ابتعدت أميالا عن ذلك الوجه المخيف الذي  
طالعتني وتنفس الصعداء ، غير أن هذه الفرحة تلاشت عندما طلع النهار  
ورأيت الثوب الحريري اللامع الذي أرتديه ، كيف أدخل بهذا الثوب  
النجس بلدتي الحبيبة ، وأوقعني هذا في ضيق وخرج لا حد لهما • غير  
أنني خرجت من هذا بشيء ما كنت لأنتظره • فقد رأيت وأنا أسير  
في الطريق جماعة الفتيات الريفيات يستحمن في ترعة مليئة بالماء  
ويصطدن السمك وكن قد نزعن ثيابهن في القيلولة ، وألقين بها على  
الشاطئ . بجوار شجرة صغيرة فنزعت ثوبى أنا أيضا ونزلت الى الماء بحجة  
الاستحمام وصيد السمك كما يفعلن ، وكما غافلتهم وأنا أنزع الثوب .  
غافلتهم وأنا أخرج من الماء ، وأختلس ثوبا ممزقا رثا لاحداهن وأرتديه ،  
وأهرب •

والى الآن لا أدري هل مازالت تلك الفتاة صاحبة الثوب تسخط  
على لأننى سرقت منها ثوبا باليا ، أم هى فرحة بالثوب الجديد الذى تركته  
لها ، كما فرحت أنا به ذات يوم •





لَسِيَّالٍ مِنْ الْعَشِيرِ



كنت اذ ذاك شابا وسيما كأي شاب وسيم تقع عليه عينك في الطريق  
وكنت مرحا هائيا البال .. كان هذا في نظر الناس .. وفي نظر كل من  
يعرفني أما في الحقيقة فقد كنت أختلف عن ذاك اختلافا كبيرا . كانت  
الحقيقة لا صلة لها أبدا بذلك الانسان الذي يراه الناس كانت حياتي  
اذ ذاك حياة تافهة .. كانت حياتي أشبه ما تكون بفعلطة كبيرة . كانت  
تماما كالخطأ اللغوي في كتاب قيم . حتى ليدهشك كيف أن هذا المؤلف  
العظيم يتورط في مثل هذا الخطأ الذي ليس من السهل اغفاله . وليس  
من سبيل الى تلافيه الا اذا أعدم الكتاب وأعيد طبعه من جديد وهذا  
أمر غير ممكن تحقيقه ولا حتى التفكير فيه لأن الله وحده هو الذي يعلم  
متى سيطوى الكتاب .

وكان هذا يضايقني الى حد كبير . ويجعلني أعيش بغير أمل .  
وأشقى ما في الحياة انك لا تستطيع أن تحسن الظن بفدك . واثق ترى  
الأمس دائما أجمل صورة من الغد ان هذا لعذاب كبير . ولذلك بذلت  
جهودا جبارة لأخلص من هذا العذاب .. تقربت الى غدى وتزلفت اليه  
وصنعت له من الجوانح معبدا واتخذت منه معبودا ومن ثم رحت أضرع  
اليه ، لعله يكشف لي يوما عن وجهه الجميل ولكنه لم يفعل . وقالوا ان  
الخمير قادرة على أن تساعدك .. انها تقلب الحقائق وتطمس معالمها .  
وتعكس المراتب وتخلق من القبح جمالا ما بعده جمال . ومن الجمال  
قبحا لعلك من بشاعته تشفق عليه وأنا لا أريد غير ذلك ، غير ان أجمل  
وجه الغد . أو على الأقل أشوه جمال الأمس . فأسرعت اليها وشربتها  
بنهم زائد ، كما كنت أكل اللقمة التي أظفر بها اذ ذاك بنهم زائد ..  
وقد استطاعت الخمير فعلا أن تصنع شيئا بل  
أشياء جاءت بكل ما هو أبيض وسودته ، وبكل ما هو جميل وشهوته ،  
ومع ذلك ظللت أشربها ، وذات ليلة كنت أترنح وحدي في الطريق  
فخرجت على - هانم - من الليل كما تخرج على أي رجل من الليل .  
واستوقفتني متهللة الوجه ترقص بعض الآمال العذاب في عينيها . لأنها

ظننتى رجلا آخر • ولذلك عندما راتنى تلاشت كل الابتسامات من على وجهها • وقالت وهى تكفكف من البرد وتزيل بعض الاوحال التى لوثت قدميها العاريتين :

— هل افادتك الخمر التى ما زلت تشربها ؟

ولما لم أعرف بماذا أجيبها قلت :

— فيم تجولك فى الطرقات فى هذا الوقت المتأخر من الليل • وفى

هذا الصقيع القارس •

— انتظر حسنة من عابر سبيل •

ولم أكن أعرف أنها تتسول فقلت على الفور :

— أتمدين يدك للسؤال يا هانم •

فأدركت سريعا ما التبس على من قولها وراحت خجلى ترنو بعينيها الواسعتين الى صدرها العارى وتسحب عليه طرف ملاءتها السوداء البالية لتغطى تلك الدائرة التى لاحت من نديها أشبه بدائرة كرة من المطاط • وقالت :

— ألا تعلم أن اللواتى يجبن الطرقات فى هذا الوقت من الليل

وفى هذا الصقيع أيضا يعتبرن — الزبون — حسنة •

فلم أحب وتركتها وانصرفت أفكر فى هذا الخيط الرفيع الذى جمع بينى وبين هانم كل هذا الزمن الطويل • عرفت كما عرفت هى نفسها لا أب ولا أم لها فى هذه الحياة غير هؤلاء الذين يقدمون اليها هذه الحسنة — وكل الذى تعرفه عن ماضيها وعن حياتها انها نشأت هكذا كما تنشأ بعض الحشائش فى الصحراء وبين ثنايا الصخور الى أن نشأت هكذا كما تنشأ بعض الحشائش فى الصحراء وبين وجدت نفسها هكذا تسير فى طرقات المدينة تتبع كل من يشير اليها باصبعه كما يتبع الكلب الأليف صاحبه فى الطريق دون أن يدري الى أى مكان يذهب • أو أى بيت يقصد أو أى شيء يريد أن يفعل • وقد تبعتنى هانم ذات ليلة • وكانت مصادقة فى تلك الليلة أن أملك بعض المال فى جيبى فأعقدت عليها منه الكثير • ولما كاد الليل ينقضى وأرادت أن تخرج أعطيتهما ما تبقى معى منه • ومنذ تلك الليلة جمعت



بيننا صلة قوية ولعل ذلك الخيط الأسود الذى يجمع بين حياتى وحياتها هو الذى ربط بيننا تلك الصلة ، فقد اتخذت هائم بعد تلك العيلة من دارى دارا لها ولم يكلفنى ذلك شيئا ولم يكلفها أيضا شيئا • أو يغير من شيء فى مجرى حياتها أو حياتى • كل الذى فعلته انها صنعت مفتاحا آخر للبيت علقته بخيط رفيع حول عنقها ثم لم أرها بعد ذلك الا نادرا • فقد كانت تجيء وتخرج فى أوقات غير محدودة • • الفجر • • بعد منتصف الليل • • عندما يجيء الصبح • وكانت تنام حيثما اتفق على الأرض فى وسط الغرفة • أو فى ركن من أركان الصالة أو فوق مقعد قديم • وكثيرا ما كنت أجىء الى البيت فلا أجدها وعندما أستيقظ أجدها نائمة فلا أعرف متى جاءت • وكثيرا أيضا ما كانت تمكث أياما لا تجيء أبدا لا فى الليل ولا فى النهار • وكانت تفعل كل ذلك تجيء وتخرج وتغيب وتحضر وتنام وتستيقظ دون أن تبس ببنت شفة • وكنت أنا كذلك لأنبس أيضا وكأن أحدا أخرس فلا فائدة من تكلم الآخر • وكأننا استنفذنا كل ما فى الحياة من أحاديث ولما لم نجد ما نقوله تذرنا بالصمت وكان يساعدنا على هذا الصمت الكبير أن أحدا كان لا يلتقى بالآخر الا نادرا • اما أن أدخل أنا البيت فأجدها نائمة ، واما أن تجيء هى فتجدنى نائما • حتى اذا تصادف والتقينا ايقاننا تكون أثقال الحياة قد أثقلت ألسنتنا وأطبقت على شفاهنا وألصقتها كما تلصق لسان الظرف بالصمغ أو الشمع الذى يختم عليه غير أننا أحيانا وفى لحظات قصار جدا تتجاذب أطراف أحاديث مقتضبة غاية الاقتضاب • وأذكر مرة اننى ذهبت الى البيت فوجدتها جالسة الى الأرض عارية تماما وقد طرحت على فخذيها ثوبها الأسود الذى لا تملك غيره • وراحت بالابرة التى فى يدها ترتق بعض الثقوب التى أحدثها البلى بالثوب ولما رأتنى لم تتحرك ولم تصلح من جلستها أو تغير من وضعها وكادت حتى لا تحس بوجودى • وكانت هذه هى عادتها تقريبا • ولفت نظرى أنها نظفت البيت فى ذلك اليوم تنظيفا جيدا وقد أعجبتنى مهارتها الفائقة فى تنظيف البيت وترتيب أثاثه هذا اذا اعتبر بيتى وما فيه من أثاث كبقية البيوت وبقية الأثاث • فقلت لها وكنت لا أدري فى الحقيقة ما أقول :

- ما دمت بهذه المهارة فى تنظيف البيوت وترتيب أثاثها ، فلماذا  
لا تشغلين خادمة فى بيت بدل هذه الحياة التى تحيينها • ؟  
فاقترعنا عن ابتسامة هادئة وقالت وهى ترنو الى ثقب آخر فى  
الثوب وتمسك به :

- حتى لا أكون كما تقول •

- تكونين ماذا ؟

- داعرة •

فدهشت دهشة كبيرة وقلت :

- اذن أنت ماذا الآن ؟

- اننى الآن أبيع المعصية لاشترى بشئها الرغيف الذى أتبلغ به ،  
وليس من سبيل الى الاستغناء عن الرغيف أما اذا اشتغلت خادمة فسأطعم  
وسأشبع وفى الوقت نفسه سأفرط فى جسدى وهذه هى المعصية •

- تفرطين لماذا ؟ ولمن ؟

- للذين أشتغل عندهم والا طردونى •

- هل جربت ؟

- فى عشرة بيوت •

- عشرة بيوت !

- وان لم يكن فى البيت من شاب طامع ففیه شيخ يريد •  
فلم أصدق وقلت :

- ولا بد من أن يكون فى بعضها أيضا من أخلاق •

- تذهب هذه الأخلاق التى تتحدث عنها والأسفاه أمام هذه الآفة  
التي خلقت معى وكانت هى سر الشقاء كله •

- أية آفة • ؟

- كمالى •

وصممت لحظات ظفرت خلالها بثقب آخر فى الثوب غير الذى  
خاطته وقالت :



– وتذهب أيضا أمام اعتقاد السادة دائما بأن الخدم ملك يفعلون بهم ما يشاءون •

ورأيتني أقول وأنا أنظر الى صدرها العارى وما عليه من كرتين من المطاط :

– والمصية التى تتركينها بالحياة معي ؟

فقلت ضاحكة وهى تمسك بطرف المفتاح الصغير المعلق فى صدرها وتنظر الى لأول مرة أثناء الحديث :

– أنها تمن ايوائك لى •• ولو أنها تمن الرغيف •• أو لو أنك تملك رغيفا آخر لى لما رأيتنى أغادر بيتك لحظة •

فأطبقت خجلا ومن ثم غادرت البيت وانصرفت الى القهوة • وكنت اذ ذاك أجلس فى قهوة فخمة • كانت أفخم قهوة فى المدينة يجلس فيها عليه القوم من الموظفين والأعيان وكانوا يظنون انى أجلس فيها لأتنى كذلك •• لأننى من الموظفين أو من الأعيان وكانت الحقيقة أيضا تختلف عن ذلك اختلافا كبيرا ، كنت أجلس فيها لعلاقتى الوطيدة بصديقين عزيزين • كانت صداقتهما هى كل آمالى فى ذلك الحين • كان الأول – محمود – الجرسون • الذى كان يقدم لى فنجان القهوة أو كوب الشاي ولا يأخذ ثمنه الا بعد ميسرة ، وكثيرا ما كانت هذه الميسرة تدل وتمعن فى دلالها ولا تجيء الا بعد جهد دونه العرق والدموع • وأحيانا كانت برغم هذا الجهد الجهد لا تجيء ومع ذلك لم يستعجلها – محمود – يوما ولم يسألنى قط متى هى ستقلع عن هذا الدلال •• وأما الصديق العزيز الآخر فكان عم – أحمد – بائع السميط ، كان عم أحمد هذا رجلا ضخما الجثة غليظ العنق متفخح الوركين دائما ولذلك كان لا يسير الا بجهد • ولذلك أيضا اتخذ من هذه القهوة مقرا له لا يغادره • وعرف زبائنهما وعرفته الزبائن جميعا • فراح كل ليلة يملأسلته بالقدر الذى يوزعه عليهم وكان يصنع سميطا فاخرا حقا تنهافت عليه الزبائن ولذلك كان عندما يهل على القهوة وينادى بصوته الاجش الذى كنت أحفظه عن ظهر

قلوب • كنت ابتهج ويغمرني السرور وتفيض على البهجة كما لو كنت  
نائما في بيدا واسعة في الظلام وطلع على النهار • • كان عم أحمد هو  
الآخر يعطيني السميطة الى ميسرة • ولكنه كان يختلف عن محمود لأن  
الميسرة عنده محددة دائما باليوم الاول من الشهر • • ولا دخل له ان  
سأفت في دلالها أو لم تسق • تمنعت أو لم تتمنع • • وكان يعرف انني  
رجل نهم • أو أنا الذي جعلته يظن ذلك ويظن أن سميطة واحدة  
لا تكفي ولا حتى أكثر من سميطة ولذلك تعود كل ليلة أن يجيء لي  
بثلاث سميطات وثلاث بيضات أيضا وقطعة فاخرة من الطماطم المحشوة  
بالثوم والبقدونس وكنت أوهمه انني أتناول في وجبة العشاء هذا كله  
وأتناول معه أيضا أشياء أخرى كثيرة في البيت • هذا لكيلا يسألني  
أو يسألني غيره من الأصدقاء في القهوة لماذا لم أكل هذا السميطة في  
القهوة كما يأكلونه • وكان السر في ذلك انني كنت أقسم السميطات  
الثلاث على الوجبات الثلاث • فأذهب الى البيت وأتناول سميطة وبيضة  
فقط • ثم أحتفظ بالاثنتين كما يحتفظ المسلم بالمصحف في مكان مكي •  
الى أن يجيء الصبح فأجعل فطوري السميطة الثانية ومعها البيضة • أما  
إذا جاء الظهر فالثالثة • ثم أظل بعد ذلك الى أن يجيء الليل وأذهب  
الى القهوة ويهل على وجه عم أحمد • كما يهل النهار على التائه في  
الصحراء ولكن وجه عم أحمد الحبيب لم يطالني في تلك الليلة في  
موعده • ولا حتى بعد مواعده • وصوته الاجش لم يشف أذني •  
وأحسست بدبيب الجوع يدب في أمعائي وكأنه هو الآخر يبحث عن وجه  
عم أحمد وذهبت بي الظنون مذاهب شتى • وتشعبت في شعاب متعددة  
• • لعله مريض • • لعل سسنة من النوم أخذته وأسته هذه البطون  
الجائعة • أو لعله مريض بوركيه هذه الليلة ولا يقدر على السير • أو  
لعله من أجل ذلك يسير متباطئا جدا وهو الآن في طريقه الى القهوة  
وتعلقت بهذا الأمل الأخير • بيد أنني فجأة أرسلت نفسي مكتوما كذلك  
الذي يرسله من تطلع عليه غولة في الليل فقد تذكرت أن اليوم يوم  
جمعة وأن عم أحمد لا يخرج من داره في هذا اليوم • وأسقط في يدي  
قائنا لم أتذكر هذا والا كنت عملت له حسابا لأن الأمر لم يكن أمر انني



أقضى ليلة من غير عشاء وإنما هو امر الليل كله والنهار وليس من قدرته  
لبشر على ان يصوم الليل والنهار • ومكثت أفكر فيما عسى أن أصنع  
وأحسست أنني اذا اقترضت ونو قرشا واحدا من محمود أو من صديق  
أيا كان من الذين يجلسون معي فسينكشف أمري وستعرف حقيقة علاقتي  
بعم أحمد وسر السميطات الثلاث كل ليلة بيد أن الله الذي يأخذ بيد  
الناس في أخرج اللحظات أخذ بيدي في تلك اللحظة دون أن أحسب  
فقد تذكرت فجأة أنني أملك قرشا صاغا في جيبي وما أن تحسسته ووجدته  
في مكانه حتى اطمأن قلبي وتركت القهوة وانصرفت أسير على مهل الى  
أن بلغت البقصال الذي يجاور بيتي وكان رجلا ودودا ولكنه كان يؤمن  
بالحكمة القائلة أن الشكك كالدين هذا يفلسك والثاني يتعسك ولذلك كان  
لا يبيع بالأجل أبدا • وكان يفضل أن يمكث اليوم كله لا يبيع بقرش  
بالنقد على أن يبيع بجنيهات بالأجل • ومددت يدي في جيبي وناولته  
القرش وطلبت رغيفا وقطعة من الجبن • بيد أنني ما ان فعلت حتى  
تذكرت شيئا هاما • تذكرت ان المصباح الزجاجي الذي في بيتي قد نضب  
زيتيه وأنا أكره الظلام وأخافه وتقلقني وحشته وغير ذلك فقد تعودت أن  
أقرأ طويلا قبل أن أنام والا خاصمني النوم • • وكنت أملك اذ ذاك بعض  
الكتب القيمة وكان من بينها كتاب لاناتول فرانس اسمه الزنبقة الحمراء  
وكان بي شوق شديد الى أن أتمه • • وتذكرت هذا كله سريعا ودون  
أن أدرك ما أفعل وجدتنى أستبدل بالرغيف والجبن زجاجة من البترول  
حملتها وانصرفت الى البيت ومن ثم أشعلت المصباح ونزعت ثيابي واستلقيت  
على الفراش ورحت أقرأ وأشبع عيني ناسيا كل شيء • وظللت كذلك الى  
أن غلبني الجوع وغشى عيني وذوب أحرف الكلمات على الصفحة التي  
أمامي حتى غدت كالرقعة الصفراء تشوبها بعض الخطوط السوداء الباهتة  
فأغلقت الكتاب وأغمضت عيني ومن ثم رحت في خاطري أهتف بالتمض  
الى أن من الله على به بعد جهد بيد أنني أحسست بعد حين بيد تهزني  
وبصوت ضئيل يناديني ففتحت عيني فاذا بهائم تقول بصوت خافت وهي  
تعمل بلسانها في شفيتها الجافتين المتشقتين •

— اعطني قرشا ••

فنظرت اليها وقلت :

— لماذا ؟

— اننى جائعة وقد انتصف الليل ولم يرزق الله بحسنة بعد • فصمت

ولم أجب ولكنى بعد حين وبعد أن كررت هى السؤال قلت :

— القرش الذى كان معى اشتريت به غازا للمصباح •

فصمت حيناً ثم تمتعت :

— وهل تعشيت ؟ ••

— الحمد لله ••

— ألم تبقى منك لقمة أتناولها •

فصمت ولم أجب هذه المرة بشيء •

فأدركت الفناة كل شيء • وصمت هى الأخرى • ومدت يدها الى الملاء السوداء التى على كتفها وكورتها وصنعت منها وسادة وضعتها على الأرض ثم تمددت بعد أن أطفأت المصباح ولكن عينها لم تقفل اذ ظلت قلقة تنام حيناً على ظهرها • وحيناً تتكور وتدس فيخذيها فى بطنها وحيناً تنهض جالسة • الى أن أحسست بها فجأة تنهض واقفة وتتساول الملاء ومن ثم فتحت الباب وتسلفت فى الظلام • فمددت يدي بعد أن خرجت وأطفأت المصباح كما أطفأت أيضاً بيدي ذلك النور الضئيل الذى كان يتسرب من عيني المتعبة ومن ثم استغرقت فى النوم غير مدرك للزمن الذى يسير بالناس أحياء كما يسير بهم أمواتا • وظللت كذلك حتى أحسست بحركة غير عادية فى الغرفة ففتحت عيني فاذا بهانم داخله تحمل على ذراعيها عدة أرغفة من الخبز وعدة قراطيس من الجبن والطرشي والفلافل وتضع كل ذلك على مائدة صغيرة قربتها من السرير الذى أنام عليه ومدت يدها فأجلستنى دون أن تنبس ومن ثم جلست بجوارى تأكل فدهشت وقلت وأنا أنظر الى المائدة وما عليها من طعام شهي يسيل له اللعاب :



– من أين جئت بكل هذا ؟؟

فقلت وهي تضع أمامي رغيفا طريا خرج للحظته من النار تعم رائحته الزكية :

– لم أقدر على النوم من غير عشاء • وأحسست بك • تذكرت أن فلانا قد طلب مني أكثر من مرة أن أمر عليه في بيته • فذهبت إليه ففرح جدا وتصدق على بخمسة قروش اشتريت هذا الطعام بثلاثة واحتفظت بالقرشين لاقتسمهما معك •

فلم أنطق وكل الذي فعلته انى نظرت الى الطعام الذى أمامي ثم نظرت الى وجهها والى شفتيها المتشققتين اللتين تندتا وغدتا كالاقحوانة عندما ترطبها انداء الفجر ومن ثم مدت يدي و ••• أكلت •

صانغ الأجران



أنا وانت والناس جميعا ، نعترف بالقضاء والقدر ، ونؤمن به ،  
 ونرضى عنه ، ولكنه فى أكثر الأحيان يكون رضا المكره على الشئ وليس  
 الراغب فيه لأنه ما من واحد يعيش على وجه هذه الأرض يريد القدر أن  
 يمتحنه ويجتاز الامتحان بنجاح ، حتى أولئك الذين أراد الله بهم خيرا  
 فقال فيهم « الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » حتى  
 هؤلاء اذا قالوا هذا بايمان صادق قالوه وقلوبهم تكاد تتمزق حزنا ولما  
 وغىظا ، وأحيانا حقدا على هذا القدر الذى — مع لهم ذلك الامتحان  
 المرير الذى لم تحتمله نفوسهم ، ولم تستوعب أسبابه عقولهم رغم  
 استسلامهم الدائم بمشيئة الله واعترافهم بأحقية سبحانه  
 وتعالى فيما يأخذ منهم وفيما يعطيهم وفيما يحيى وفيما يميت • ان هؤلاء  
 أنفسهم ليس من واحد فيهم الا ويسأل نفسه اذا ما أخذ الله منه شيئا — لماذا  
 أخذه ؟ وأحيانا ما يزيد على السؤال سؤالا آخر • فيقول مثلا لماذا أخذ  
 الله مالى ولم يأخذ مال فلان ، أو لماذا يأخذ الله ابنى ولم يأخذ ابن فلان ؟  
 ولعل هذا السؤال بالذات هو الذى كان شغلها الشاغل منذ أن  
 امتحنها القدر ذلك الامتحان القاسى • كانت تسأله لنفسها اذا أمست  
 وتسأله لنفسها اذا أصبحت وتسأله لنفسها اذا أكلت أو شربت وتسأله  
 أيضا لنفسها اذا ضحكت أو بكت ، نامت أو استيقظت • ومع ذلك فلم  
 تظفر بالجواب ، وهى تعلم علم اليقين أنها لن تظفر به ، لأن الله أخفى  
 الغيب عن الناس ، وهو سبحانه وتعالى يقول لمن يسأل سؤالا ، قولا فيه  
 شفقة وفيه عطف ، وفيه أيضا تعزية كبيرة • انه يقول لا تسألوا هذا  
 السؤال ، لأنكم لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع — ولكن أى واقع هذا الذى  
 كانت ستختاره أو سترضى به • • ستفضله أو تفضل عليه موت ابنها • •  
 انتزاع كبدها من بين جنبها • • حقيقة هو الذى أعطى ، وهو الذى أخذ  
 ولكن فيم العطاء إذن اذا كان الأخذ لا بد منه ؟ بل ولماذا يأخذ منها هـى  
 ولم يأخذ مثلا • • • وزمت شفتيها سريعا ، وأطبقت على أنفاسها فى

عنف حتى لا تفلت منها كلمة أخرى من هذا الذى تهذى به ، هذا الذى يكاد يبلغ الكفر والجحود ، وهى التى لم تعرف فى حياتها غير الايمان والخير فى كل ما يجىء به الله . وقد أعطاها الله سبحانه وتعالى الكثير من الخير الذى عاشت عليه طوال حياتها ، فقد نشأت لا تعرف الا الخير ، الخير لنفسها ، والخير لأسرتها ، والخير للناس جميعا ، ولكل من يحيط بها . حتى جمالها الذى كاد يبلغ حد الفتنة ، لم توجهه الا للخير كما توجهه الزهرة عيرها للنفوس فتريحها حتى أنها عرفت فى الكلية بالزهرة ، ونوديت بنصف اسمها ، يناديها الطلبة ، وتناديها الطالبات ويناديها الأساتذة بخير . . . واختفى اسم خيرية ، حتى كادت اذا ناداها أحد بخيرية. ظنته ينادى غيرها ، وكان هذا يسرها كثيرا وتعمل جاهدة لتكون عند حسن ظن الناس بها . وكان هو أستاذا لها فى الجامعة ، وكان يؤمن بها ايمانا كبيرا ، ويؤمن بمستقبلها ، ويؤمن أيضا بطهارة خلقها ، ويرى الراحة الكبرى فى أن يقص عليها أخباره ، ويستشيرها فى أموره ، ويحتفظ عندها ببعض أسرار .

كانت له كأم وكأخت وكابنة . وكانت هى أيضا تطمئن اليه . الاطمئنان كله ؛ وتقول كلما ذكرته أو ذكرت اسمه : ان الأبوة ليس من المحتم أن تكون من الصلب ، وان الأخوة ليس من الحتم أن تكون من الرحم . والا فما كان هولها أبا وأخا وصديقا وفوق ما تعرف الناس والصدقات . كان لا مطمع لها فيه لأنه زوج . وكان لا مطمع له فيها لأنه على خلق . ومثل هذه الصداقة من النادر وجودها ، ومن النادر أيضا أن تنقسم عراها ، أو يعكر صفوها معكر ، وكانت سعادته بذلك لا تكاد تدانيها سعادة فى الوجود ، الى أن جاءها ذات يوم وهو لا يكاد يفتح عينيه من الحزن ، ولا يكاد يأخذ أنفاسه من الألم واللوعة . فقد ماتت زوجته أثناء عملية وضع قاسية بعد أن عجز الأطباء عن انقاذها ، وعجزت قوى الأرض جميعا أيضا عن الابقاء على حياتها ، لقد أراد لها القدر الموت أرادها . . . لماذا تزوج ، وأحب زوجته كل هذا الحب ؟ اذا كان لابد من الدنيا ، وهو حائر فى كل شيء ، حائر حتى فى ارادة القدر هذه التى أراد لها أن تدخل القبر ، فى نفس اللحظة التى يخرج فيها ابنها الى

هذا الفراق ، ثم لماذا قدر لهذا الطفل أن يجيء . ثم لماذا أيضا قدر لأخيه ان يجيء من عام مضى ، طالما أنها ستموت . . طالما أن اللذين انتزعتهما من بين أحشائها لا تراهما ، طالما أن الوليدين سيفتحان أعينهما الصغيرة التي لم يكتمل نموهما بعد على كل شيء إلا أمهما ، ثم ماذا سيصنع لهما وكيف السبيل إلى تربيتهما ؟ انه وحيد ، ولا أم ولا شقيقة ، حتى كان يطمئن إلى واحدة منهما وهو لا يستطيع أن يتزوج ثانية ، وحتى إذا فكر في الزواج مرة أخرى فمن التي ستأخذه على ابنه ؟ من التي في الوجود كله تستطيع أن تستشعر عاطفة الأمومة ، وتقديرها أن تكفكف غرب اليتيم وتسبح دموع الحرمان ثم كل هذا الحب الذي غرسه الله في قلبه لأبنائه . . وفكر وانساب دموعه على خديه كالسيل ، وكانت أول مرة تراه تبكي ، وأول مرة تراه يتوجع من الألم في صمت كما يتوجع الجواد الأصيل الذي يتألم . فذهلت ، وارتعشت ، واضطرب قلبها حتى اهتز هزات بين جنبيها وإذا بها تعرف شيئا كانت تجهله ، تعرف أن أحزانه هي أحزانها ، وأن آلامه هي آلامها ، وأن زفرات الألم التي تقطع نياط القلب هي زفراتها هي ، لأن قلبها هو الذي كان يتقطع حتى لتكاد دماؤه تنزف قطرات ، كما ينزف هو تماما الدموع من عينيه ؛ وتتساقط قطرة قطرة . . ولكنها كانت أكثر منه احتمالا للألم ، وهذه ميزة ميز الله بها النساء إذ جعلهن أكثر جلدا وأكثر تماسكا ، وأكثر أيضا صبرا على احتمال الخطوب ، وقدرة على تحمل حرقه النار التي يشوى بها القدر قلوب من يريد من البشر . وكان لهذا الصبر والجلد والایمان أثره في قلبه ، فقد استطاعت التلميذة أن تخفف عن قلب أستاذها وأن تتمكن بإبسامتها الدائمة التي تقطر صفاء وطهرا أن تبدد أكثر أحزانه ، وأن تفهمه أن الخير في أن نرضى ، وطالما أنه لا إرادة لنا فيما يصيبنا من خير أو شر فعلينا أن نستقبل الشر كما نستقبل الخير تماما . . طالما أن كله من عند الله ، وطالما أنه ليس في استطاعتنا أن ندفعه عنا أو نأخذه لنا ، وراحت جاهدة تعمل على تخفيف أحزانه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وعرفت أن أحزانه الحقيقية إنما هي من أجل طفليه الصغيرين اللذين تيتما ، فركزت كل عنايتها بالطفلين اليتيمين ، فكانت تختلس وقتها اختلاسا وتذهب إلى



بيته أثناء غيابه عنه ، وتأخذ لهما الحلوى ، وتشرف على أكلهما ونومهما وحتى لعبهما التي يلعبان بهما ، وتوجه الدادة والخدم الى كل ما فيه راحتهم وهماتهما مما كان له وقع حسن في قلب الطفلين وجعلهم ينسيان الى حد كبير البكاء والعويل والسؤال عن أمهما وأين ذهبت ولماذا لم تعد بعد من سفرها الطويل .

واستشعر الأستاذ صاحب القلب الكبير جميل تلميذته عليه ، وأراد أن يرددها لها مضاعفا ولكنه لم يقدر أنها هي نفسها الجميل فكيف يرددها إليها ، ان في اشراقه وجهها ، وفي ابتسامته ثغرها ، وفي صفاء عينيها ، وفي نبرات صوتها . . وحتى في وقع خطواتها على الأرض ، ان في مجموع هذا كله ، أو جزء منه الجميل الذي قدمته اليه ، فكيف به يرددها إليها ، وفكر ، وفكر طويلا وأجهدته التفكير فاذا به يجد أن الجميل الذي يريد أن يرددها إليها ، هو في ذات نفسه . . في حياته . . في دنياه . . في وجوده ولما يتقن هذا وعرفه جيدا ، وعرف أن لاخلاص له منه . ذهب إليها ذات يوم وقال لها في بساطة متناهية ، لا تكاد تعدلها بساطة في الدنيا ، حتى لكأنه يقول لها تعالى لنذهب الى السينما ، أو تعالى لنشرب كوبا من عصير الفاكهة . في هذه البساطة قال لها وهو يسير معها في فناء الكلية ذات يوم :

— ما قولك فيما اذا تزوجنا .

فأجابته في نفس البساطة وهي تسير بجانبه وكأنها توافقته على الذهاب الى السينما ، أو على شرب كوب من عصير الفاكهة :

— لا شيء . تزوج .

\*\*\*

وتزوجا ، ولم يخيب الله ظنه فيها ، ولم يخيب الله أيضا ظنها فيه ، فقد بدأ حياته منذ أن تزوجها ، وبدأت هي عمرها منذ اليوم الذي تزوجته فيه . ومن أفضال الله على الانسان أن وهب له النسيان . وجعل كل شيء ينسى مع الأيام . فقد نسي انه كان حزينا ، ونسى أيضا أنه كان زوجا لغيرها ، ونسى أيضا أن مخلوقة كان يعزها ماتت . ولم ينس هو فقط ،

انما نسي أيضا من كانوا أكثر صلة منه بالأحزان والآلام واليتم المرير ،  
نسي الطفلان الصغيران أنه كانت لهما أم وماتت ، أنستهما الفتاة الطيبة  
الخيرة ، أنستهما أمهما ، وتيتهم ومرارة الحرمان الذي كانا يتتجرعان  
غصصه كلما شاهدا طفلا مع أمه أو شاهدا أما مع طفلها • وقد أثابهما  
الله على هذا بخير جزيل من عنده ، وكافأها على هذا الخير الكبير مكافأة  
لا تنتظر زوجة في الوجود أحسن منها ولا أكرم ، فقد وهب الله لها في  
عامها الأول من الزواج طفلا جميلا رقيقا كان قرة عين لها ولأبيه ولليت  
كله • لقد أضفى عليهم مولد هذا الطفل سعادة فوق سعادتهم وهناءة  
فوق هنائتهم ، كما زادهم هدوءا وأمانا واطمئنانا للحياة والدنيا • ولم تكن  
سعادة الصغيرين بهذا الطفل بأقل من سعادة أمه وأبيه وقد جادت عليهما  
الحياة بأخ ثالث يكاد يقرب منهما سنا ملأ عليهما البيت نورا والقلب اشراقا  
والحياة بهجة • وكان هو شغلها الشاغل ، كان هو لعبهما وضحكهما  
ومرحهما وسعادتهما كلها ، يلعبان حول أرجوحته ينظران اليه فيضحك  
فيضحكان ، ويهز لهما يده الناعمة الرقيقة فيهتز معها قلب الواحد منهما  
فرحا وسرورا ، وتخطي الطفل مرحلة الأرجوحة ، وعرف كيف يستقيم  
على قدميه ، فهرع الصغيران به الى الحديقة ، وراح الثلاثة يلعبون  
ويمرحون ، يحفرون الأرض ، ويقطفون الزهر ، ويسقون الشجر ،  
وكان لكل من الصغيرين أدوات البستاني الكاملة ، الجاروف والمقص  
والشقرف والرشاشة يلعبان بها ويزرعان بها الزهر والشجيرات الجميلة  
وكان لكل منهما شجرة يرعاها ويرويا ويسهر عليها ، فجيء للطفل  
بالأدوات ، وزرع كأخويه شجرة ورد ، وكانت فرحة الطفل بشجرته  
التي سميت باسمه لا تقدر ، يهرع اليها اذا أصبح ويودعها اذا أمسى ،  
ولا يرى الا عندها أو معها حاملا على كتفيه الصغيرتين أدواته يحفر حولها  
مجارى الماء ، أو يحمل على يديه الصغيرتين الماء لها ، ويرفع عنها الأعشاب  
الخبيثة اذا نبتت بجوارها وحولها ، ومن حوله الصغيران يساعداه اذا  
احتاج لمساعدة ، ويحملان عنه الجاروف اذا عجزت ذراعه اللينة عن  
حملة ، ومن خلفه قلبان عطوفان سعيان يطلان عليه من الشرفة أو  
النافذة • يتسمان اذا ابتسم ، ويتحركان اذا تحرك ، ويقفزان هلعا اذا

تعثرت قدمه الصغيرة ، أو يترنحان ضحكا وسرورا • ومن خلف هؤلاء جميعا شخصت عين أخرى ، ترى وترقب وتتأمل هذه السعادة الكاملة التى ترفرف بجناحين من صفاء على هذه الأفئدة الهائلة ، وعلى هذه القلوب الناعمة ، وهذه الأسرة السعيدة ، وهذا البيت الذى أمن من خوف ، واطمأن من قلق ، وتنسم عطر السعادة صافيا بعد أن خنقته سحب الأحزان زما ، وكأن هذه العين رأت فى هذه السعادة الخالصة شيئا جديرا بالاهتمام والتعمق والوقوف عنده حيناً • • لماذا لا يكون هذا النبع الذى تنبع منه كل هذه السعادة هو نفسه السؤال الذى يجىء فى الامتحان ، أجل لماذا لا يكون هذا النبع نفسه هو الامتحان بعينه ، وما أن اطمأن القدر ، واطمأنت عينه التى لا تغفل الى عنف الامتحان وقسوته ، حتى راح يضع سؤاله أثر ليلة باردة الطقس أصيب فيها الطفل العزيز بنوبة حادة من البرد ، وما كاد يخلص الممتحن من امتحانه فى اليوم الثانى حتى كانت أعراض الالتهاب الرئوى تمزق صدر الطفل الصغير وتختق ذلك الضوء الذى كان يشع من عينيه الصغيرتين الجميلتين ويحيلهما الى تقيين من الدم الأسود الذى تغمر زرقة وجه الطفل حيناً فتحيله الى السواد ، وتنزع عنه حيناً فتحيله الى صفرة أشد بشاعة من الموت نفسه ، وما أن انتهى الممتحن من آخر سطر وضعه فى امتحانه فى صبيحة اليوم الثالث ، حتى لفظ الطفل الوديع آخر أنفاسه ، فمات معه أيضا كل شيء ، مات الأمل • • ومات الضحك • ومات النور ، ومات الهناء ، وماتت الأسرة • وأصبح كل ما فى البيت حتى القاعدة والأسرة والتحف والتماثيل أصبح ذلك كله أشبه بالجثث العفنة الكريهة التى تتناثر فى العراء وتزدحم فى الليل أثر معركة حربية طاحنة بين جيشين هائلين ، وكانت الأم هى الوحيدة فى وسط هذا البيت الذى ينساب أنينها فى الليل وفى النهار ومع كل رعشة من ثغر أو دقة من قلب أو رجفة من فؤاد • فتملأ البيت آلاما وأوجاعا • تماما كما ينساب فى العسراء وسط تلك الجثث المتناثرة صوت جريح يموت فيملأ آذان الكون أحزانا دون أن يسمعه أحد • كانت الطعنة بالنسبة اليها قاتلة ، ولكنها من سوء حظها لم تمتها ، بل أبقت عليها لا لشيء الا ليزداد عذابها تماما كما أراد الممتحن من



امتحانه • كان كل شيء تقع عينيها عليه في البيت ، وكل صوت تسمعه  
أذنها سواء لها أو لغيرها ، يذكرها بقرة عينها الذي كان • غرفته • •  
سريره • • أدوات لعبه • • الغرنة التي كان يفتح ابوابها • والمقاعد التي  
كان يعبث بها • • الحديقة التي كان يلعب فيها • وشجرة الورد التي  
زرعتها يده الصغيرة • • الطفلان • • الطفلان الصغيران • يا للفاجرة •  
طفلها هي الذي يموت دون الأطفال جميعا • ابنها هي هو الذي يموت  
من بين الثلاثة • ابنها هي هو الذي تحرم منه • • لماذا جاء إليها اذن • •  
لتعذب كل هذا العذاب • • لماذا تذوقت اذن كل قطرات تلك السعادة  
وهي ابنة العشرين ، واستشعرت كل هناة الأمومة ولذتها وجمالها ؟  
لماذا • ولماذا • ولماذا • • وظل هذا السؤال • أو هذه الأسئلة تلم بها  
ان أمست وتلم بها ان أصبحت • وتلم بها كذلك كلما قامت أو قعدت  
أكلت أو شربت حتى وجدت نفسها دون أن تدري ، ووجدتها أيضا  
كل من في البيت فتاة غير التي كانت ، ذهبت تلك الوداعة ، وتلاشت  
تلك الاشراق التي كانت تنير الجبين ، وذهب ذلك الصوت الناعم والبسمة  
المتألقة ، والنظرة الحنون ، انها لا تطيق أن ترى أحدا في البيت ، ان  
الطفلين الوادعين اللذين كانا مبعث سعادتهما ، أصبحا مبعث شقوتهما  
وأحزانها ، اذا ضحك أحدهما تذكرت ضحكة ابنها • واذا بكى أحدهما  
تذكرت بكاء ابنها ، واذا ناداها أحدهما - يا ماما - أدمى الألم قلبها ،  
لأنه يذكرها بحرمانها من هذا اللقب • واذا رأت أحدهما وهو يسير  
أو يلعب رأت معه ابنها الذي كان معه يلعب ويرتع ويلهو ويملاً  
البيت نورا • واذا رأت الأب يداعب أحد طفليه أو يلاعبه فهو كان  
يفعل ذلك يوما مع ابنها • وقد فطن الزوج الى ذلك فراح يخفف من  
هذه الآلام ولكن على حساب الطفلين الصغيرين اللذين لا ذنب لهما ، فهو  
لا يضاحكهما كما كان يفعل ، ولا يداعبهما كما كان من قبل ، ولا يذكرهما  
بخير ولا بشر ، وأحسا بذلك ، كما شعرا بأن رؤية الأم لهما أصبحت  
تخيفهما فأنزويا وراحا في يتم قاتل وحرمان مريد يتعدان عن زوجة  
أبيهما ما استطاعا وعن أبيهما أيضا • حتى أن الطفل الصغير سأل أخاه  
ذات يوم وهو منزو معه في ركن ناء من أركان الحديقة تعودا أن يذهبا

إليه حتى لا يراها أحد - لماذا أمنا ماتت - فاجبه اخوه نبي سدا بجه  
د يعرفها غير قلب طفل يتيم - بل فل لماذا أخونا مات - وهكذا استشعر  
الطفلان حقيقة يتمهما بموت أخيهما أكثر مما استشعراه بموت أمهما أما  
الأم فقد ابت عليها أحزانها أن تستشعر هذا • إذ أصيبت بحالة شاذة  
تكاد تشبه الجنون إلى حد كبير ، ان ابنها لم يموت ، ان عينها ان كانت لم  
تره فان قلبها يراه ، ويراه في كل لحظة ، وفي كل ساعة بل وفي كل  
دقيقة •• ان غرفته هي هي لم يقربها أحد ولم يجبرؤ مخلوق على أن  
يفتح لها بابا وسريره كما هو تنظمه له كل يوم في الصباح وفي المساء ،  
ولعبه كما هي ترتيبها له كما كان يريد ، وأدوات حديقته هي هي مازالت  
نحملكها في يديها كل صباح ومساء كما كان يفعل تماما وتهبط إلى  
الحديقة وتذهب إلى شجرتة التي أحاطتها بسور صغير حتى لا يعث بها  
أحد ، وتروح تسقيها رشاشة الطفل التي تتساقط منها دموعها فتسقي  
الشجرة كل يوم بالائنين : الماء والدموع •• أما إذا جاء الليل فتعد له  
ملابس النوم النظيفة ، وتضعها له على السرير وتروح تنتظره حتى يجيء  
وكثيرا ما كانت تنتظره الليل كله ، أما الزوج فكان يرى هذا كله فلا  
يستطيع الا أن يشفق عليها من قلبه الذي كان ينظر لها كل يوم مرات  
أما الطفلان ، ، فكان يمر اليوم بل اليومان ، بل الأسبوع أحيانا لا تراهما  
وكانت عدم رؤيتها لهما تسبب لها بعض الاطمئنان دون أن تدري • حتى أن  
الزوج فعطن إلى هذا ، فلم يغضب ولم يثر أو يتأذ وانما فكر في الأمر  
طويلا ، وفكر فيه بعد أن وضع نفسه في مكانها هي • فإذا به يسأل  
نفسه هذا السؤال : لماذا ابني بالذات هو الذي مات ؟ بل فكر في شيء  
آخر ، شيء كان له أثره في نفسه وفي الحقيقة وفي المنطق أيضا ،  
شيء جدير بأن يعيد إلى زوجته الكثير من الأمن والاطمئنان والهدوء ،  
بل النسيان •• ان الشيء الوحيد الذي يذكرها بالطفل أو الفجيعة التي  
حلت هو طفلاه •• ان مجرد رؤيتهما تجعل هذا السؤال - لماذا ابني هو  
الذي مات - يتكرر دائما • وهو يحب طفليه هذين حبا جما ، كما يحب  
تماما كل أب أطفاله حبا جما • وهو أيضا يحب زوجته حبا خالصا  
ما بعده حب • وهو فوق ذلك كله يقدر هذا الظرف القاسي الذي وضعها

فيه حطها العائر ، ونصيبها المشتوم ، فلماذا والحالة هذه لا يصنع شيئا .  
يامل من ورائه الكثير من الخير لأولاده ولزوجته ولنفسه بعد ذلك .  
انه لا يستطيع ان يعيش من غير زوجته ، وزوجته لا تستطيع ان ترى  
أولاده ، دون ان ترى ابنها ، ان له عمة في الاسكندرية وهى سيدة  
عطوف حنون عليه وعلى ابنائه . فلماذا لا يذهب الطفلان ويعيشان معها  
هناك ، وعمته ميسورة الحال وهو أيضا ميسور الحال يستطيع أن ينفق  
على أطفاله ويكفل لهما فى كنف عمته الهناء والاطمئنان الذى يريده كل  
أب لأولاده ، وبعد ذلك يترك هذا البيت وهذه الحديقة وهذه الشجرة  
وينتقل بزوجه الى مكان آخر بعيد عن كل هذا الذى يذكرها بقلبيها  
الذى فقدته . وكانت الفكرة صائبة ورضى عنها قلبه وضميره ، ولما عزم  
على التنفيذ أشار على زوجته فاذا بها ترضى عن اقتراحه ، بل وتهتم به  
كما لو كان هو غايتها . وما أن وجد الزوج منها ما وجد حتى سافر  
فى نفس اليوم الى الاسكندرية ليحضر عمته كى تأخذ بنفسها الطفلين ،  
حتى لا يشعرها بشيء مما انعقد عليه العزم بخصوصهما اذا ما بعث بهما  
اليها . ولما سألته زوجته لماذا هذه العجلة انتحل لها عذرا غير الحقيقة فقد  
كان يعلم أن غدا هو عيد مولد ابنها وأنه سوف يكون يوما قاسيا على  
البيت ومن فيه فلعل فى تعجيله بالسفر والعودة وإبعاد الطفلين فى نفس  
اليوم ما يخفف من حدة آلام الذكرى وكانت هى تظنه غير مدرك لهذا  
اليوم ، وان هذا اليوم هو مولد ابنها الذى مات من شهرين . ولذلك  
ما ان خرج الزوج من البيت ، حتى راحت تعد العدة لعيد ميلاد ابنها  
كما لو كان موجودا ولم يمت . ولما استكملت كل شيء دخلت غرفته  
فى الصباح ترتبها كالعادة . ونظرت الى الهدايا الأربع التى كانت قد  
جاءت بها اليه فى أعياد ميلاده السابقة . وفكرت فى أى هدية تأتى بها  
اليه هذا العام . وارتدت ثوبها الأسود الذى لم تر الا فيه منذ شهرين .  
وهبطت الى الحديقة ومرت وهى فى طريقها على شجرة الورد ووقفت  
حيالها لحظات ، وراحت بعينها اللتين لم تفارقهما الدموع تتفحص تلك  
الوردة البيضاء الكبيرة التى أنبتتها الشجرة هذا العام . وبعد أن تأملتها



حلويلا وتحسستها بعينها وقلبها وكل شيء فيها انصرف الى الطريق ، ومن ثم راحت تطوف على جميع محال اللعب والهدايا تتقى لابنها واحدة ، الى أن جاءت له بهدية غالية تفوق جميع الهدايا السابقة جمالا ، وثمنا أيضا • ولما عادت الى البيت كان المساء قد أقبل دون أن تظن بعد •

بيد أنها لم تكذب تبلغ البيت وتحرق الحديقة وتسير بضع خطوات حتى وضعت ذاهلة كمن اصابه مس • فقد رأت شجرة الورد ولكنها لم تر الورد البيضاء الكبيرة على فرعها كما تركتها في أول النهار • • لا بد أن احدا عبث بها • لا بد أن الطفلين اللعينين انتهزا فرصة غيابها خارج البيت وقطعا وردة ابنها وعبثا بشجرته • وما أن عرفت ذلك حتى انقلبت سحرتها ، وجحظت عيناها جحوظا مخيفا وراحت تركض على غير وعى تدفع هذا الباب ، وتدخل هذه الغرفة ؛ وتصرخ بأعلى صوتها على الطفلين الشقيين ، بيد أنها وهي كذلك رأت شيئا آخر غير الذي رآته • رأت شيئا جن له جنونها • رأت باب غرفة ابنها مفتوحا على مصراعيه ، فوقفت تنظر الى الباب ذاهلة أشبه ما تكون تماما بالهرة المفترسة ، ومن ثم أقبلت على الغرفة في جنون ما بعده جنون وما أن دخلتها حتى رأت الطفلين الصغيرين يعبثان بسريره ، فنظرت بعينها الجاحظتين تريد أن تنقض عليهما لتخنقهما بيديهما المرتعشتين لتقتلهما أمام عينيها اللتين بلون الدم ، لتميتهما كما مات ابنها • وما أن رآها الطفلان كذلك حتى سقطا على الأرض يرتعشان خوفا ورعبا ، ولما انقضت عليهما لتصعقهما بقدمها في جنون ، نهض أحدهما وهو الصغير يرتعش وترتعش شفتاه وترتعش أيضا يده وهو يقول لها في صوت مضطرب :

— لا تضربينا يا أماء ، فأنا وأخي نعرف بأن اليوم عيد ميلاد أخينا مجدى وهو كان يحب شجرته ، فأخذنا الوردة التي فيها وجئنا بها الى سريريه ووضعناها تحت وسادته ، لعلها تذهب اليه في هذه الليلة مادما لا نستطيع نحن أن نذهب اليه •

وما أن سمعت الأم ذلك حتى وقفت لحظات لا تدري هل

مرت من حياتها أم لم تمر ، ولا تدري أيضا هل طالت حتى غدت دسرا  
أم قصرت حتى كنت كالغمضة • وانما الذى تدريه انها انحنى عليهما  
وأخذتهما من على الأرض وحملتهما على صدرها تحضنهما وتقبلهما وكأنها  
تقبل ابنها تماما ، وبينما هى كذلك رأت من النافذة زوجها ومن خلفه  
عمته ، وحين رأت ذلك خافت خوفا شديدا وراحت تركض بالطفلين  
هاربة تصرخ وهى تحتويهما فى أحضانها منذرة بأنه ما من قوة فى الوجود  
تستطيع أن تنتزع من أحضانها الطفلين اللذين علماها درسا فى الحب •  
وقف حiale صانع الأحزان حائرا ينظر بعينيه الزائفتين الى ذلك النور  
الذى أشرق فى البيت من جديد وملاء أنسا وابتهاجا •

الذئب



يختلف حال قرينتنا في النهار عنه في الليل اختلافا كبيرا • فيينا  
قرينتنا في النهار جميلة رائعة الجمال • يلتف النيل بها حتى ليكاد يعانقها  
وهو يرسل من حين الى آخر خرير أمواجه ألحانا رائعة عند أعتابها •  
وتظللها في النهار مزرعة نخيل قرابة الفدانين من الخلف ترسل ظلها  
الوارف عليها فيقيها في الحر شر الهاجرة وتلطف من حديثها • كما تفد  
عليها أسراب الطيور والعصافير التي تقبل من الجنوب أيام الحصاد وتسقط  
على سعف النخيل مرققة تتناعى وترنم وترسل أعذب الألحان • • بينما  
قرينتنا في النهار كذلك فهي في الليل كشيء موحشة أشبه تماما بمقبرة  
مهجورة ينعق فيها البوم الذي يختبئ فوق النخيل في الظلام • وتعوى  
الذئاب عواء موحشا كما تنبح الكلاب الضالة نباحا يؤذى السمع • وحين  
تهب العاصفة من الشمال يختلط ذلك كله بهياج البحر الذي تزارأموواجه  
وتتلاطم في صخب وعنف • لذلك كنا عندما يجيء الليل • أو على وجه  
التحديد بعد صلاة العشاء ندخل بيوتنا ونغلق الأبواب ولا نخرج منها  
الا في الصباح • حتى الذي كان يريد قضاء أمر خارج الدار يقعد  
عنه صراخ الموج في الليل أو عواء ذئب في الظلام ، أو نباح كلب ضال  
في قلب المزرعة •

وكانت هي ليلتنا في قلب الدار • وتعرف أن هذا كله ينتظر  
الناس في الخارج • وينتظرهم هذه الليلة بالذات على صورة أكثر  
بشاعة • • فقد بدأت السماء تمطر • وان أمطرت السماء في قرينتنا ليلا  
فشوارع القرية وأزقتها وهذه المزرعة الكبيرة • • كل ذلك محرم على  
البشر لا يجزؤ انسان أن يخرج اليه أو حتى يراه لكيلا يمتلئ قلبه  
بالخوف والفرع الذي ترتعد له الفرائص ولكن هي في هذه الليلة بالذات  
كان لابد لها أن تخرج وأن تلقى بنفسها في هذا الهول الكبير • بل كان  
لابد لها أن تبحث عنه وتسعى اليه بقدميها ، بل وتلمس جميع الأماكن  
التي هي أكثر فزعا ورعبا من غيرها • بل هي من أول هذا اليوم تستعجل

هذا النهار البغيض الذي يملأ قلوب الناس أمنا وطمأنينة ، وتستحث هذه الشمس المشرقة التي تملأ الكون اشراقا ونورا ، وتنتظر في غير ما صبر ولا اناة ذلك الليل الموحش وهذا الظلام الكريه ، وان تمطر الغزير الذي يقعد الناس في بيوتهم فلا يخرجوا منها أبدا وذلك كله لكيلا يراها أحد ، فالقتل كل القتل أن يراها أحد اذا ما خرجت في الليل الى قلب المزرعة ، ولذلك عندما فتحت الباب وخرجت في عتمة الليل سرها أن ترى الظلام أشد سوادا مما كانت تنتظر والسماء أكثر عتمة مما كانت تظن والمطر ينهمر في غزارة كانت لا تنتظرها فتسللت خلسة تتلفت حوالها الى قلب المزرعة ، حاملة على صدرها تلك اللقافة التي تحتوي على أشياء كثيرة ، عدة خرق بالية ممزقة ، بعضها جاف وبعضها لزج تفوح منه رائحة معينة ، وتسيل من بعضها الآخر نقاط تشبه تماما نقاط الدم ، وفي قلب هذا كله قطعة من اللحم ، ولكنها على هيئة طفل وله وجه يشبه في استدارته الهلال الوليد لولا بعض نقاط لزجة من دماء جافة تلوثه ، وله أيضا أنف وله عينان ولكنهما مغلقتان وان كانا من حين لآخر تلتمع فيهما بعض حبات صغيرة من النور ، وله كذلك ثغر دقيق رقيق ولكنه مطبق وان كانت ترف عليه من لحظة الى أخرى نسمة خفيفة تشبه الأنفاس فيفتر الثغر عن بسمة رقيقة ولكنه لا يتبسم لأنه لا يعرف بعد كيف تنشق الشفاه لتبتسم ، وفي قلب اللقافة أشياء أخرى وضعت مع هذه القطعة من اللحم : سبع حبات من الفول سلكت في خيط رفيع وعلقت على الصدر وكذلك قطعة سوداء من الفاسوخ لصقت على الجبين تتوسطها خرزة تقي الوليد اذا ما لقي في الطريق ما ينتظره من شر .

وتسللت بهذا كله وسط النخيل خائفة تتلفت حوالها فلا ترى الا ظلاما وتنتظر فوقها فلا ترى الا سماء معتمة ترسل وابلا من المطر الذي ينهمر عليها ويصفع وجهها في قسوة وعنف ، فتحنو على اللقافة وتضمها الى صدرها وهي تلمس لها مكانا آمنا ولكنها لم تجد قط هذا المكان ، فهي كلما أملت خيرا في جذع نخلة كبير ووضعت اللقافة بجانبه تساقطت عليها نقاط المطر كجمرات من نار ، فتضطر الى أن ترفعها ثانية

وتضمها الى صدرها وتحنو عليها وتبحث لها عن مكان آخر • الى أن وجدت بعد هول كبير مكانا لم تستطع نقاط المطر أن تنفذ اليه • وهو قريب من الطريق الذى تؤمه السابلة عند الفجر • فاطمأنت وأرسلت نفسها طويلا أخرجت معه أكثر ما كانت تحتزن من خوف وفزع واضطراب كبير • ووضعت اللقافة على الأرض فى رفق وانحنت عليها وكشفت فى رفق عن وجه الطفل وطبعت عليه قبلة طويلة وهى تبكى • وأحس الطفل بشيء دافئ يسيل على وجهه فابتهج وطرب وهمهم بشفتيه المطبقتين وحاول أن يفتح عينيه ليتسم ولكن الدموع الغزيرة التى أغرقت وجهه حالت بينه وبين ما يريد • ومدت هى يدها اليه وجمعت عليه أطراف تلك الخرق البالية ثم لفته لفا محكما فى قلب اللقافة • ثم نهضت بعد أن قبلته قبلة أخرى • وحاولت أن تسير بيد أن عينها كانت قد تسمرت على وجه الطفل • ولما كان لابد لها أن تسير ، سارت ولكن بظهرها محاولة بذلك أن تخلص نظراتها المستميتة على وجه الطفل الى أن استطاعت ذلك بعد جهد كبير وبعد أن قطعت شوطا كبيرا فى السير • وقفت مرة أخرى لتلقى نظرة أخيرة على هذا كله • واللقافة والخرق البالية • وقطعة اللحم الصغيرة التى فى قلبها • وذلك الوجه الصغير الذى به عينين وثغر ولكنه لم يعرف كيف يستعملها • وبعد أن فعلت ذلك وألقت النظرة التى تريد أدارت ظهرها اليه وانصرفت • واضعة يديها على عينيها حتى لا تعود تلك العيون وتعلق باللقافة مرة أخرى • بيد أنها بعد أن سارت خطوات أحست برغبة شديدة فى أن تلقى على المكان كله نظرة أخيرة • وتودع فيه تلك القطعة من اللحم الى الأبد • بيد أنها فجأة وقفت ذاهلة مرتعدة الفرائص تضطرب عيناها اضطرابا شديدا وترسل شررا كأنه حبات من نار الى ذئب ضخم كبير يتسلل بين النخيل فى الظلام قاصدا تلك اللقافة وقطعة اللحم التى فى قلبها • وما أن رآته حتى صرخت صرخة مكتومة فى الظلام وانقذت بكيانها المرتعش اليه تركض خلفه • وبدل أن تخاف هى الذئب الذى تطارده فى الظلام خاف الذئب تلك التى تقبل عليه على هيئة حيوان مسعور مفترس ترسل عيناها الجاحظتان نارا فى الليل كما يرسل وجهها المربد ومسححتها



التحجرة خوفا ورعبا كبيرا ، فهرب سريعا من أمامها ولكن فى لسانه الطويل المدلى وأنياه الطويلة المدببة رغبة أكيدة فى العودة . ووقفت هى غير بعيدة من اللقافة مختبئة خلف جذع نخلة كبيرة ، خشية أن يعود الذئب ثانية ولما طال وقوفها كثيرا واطمأنت الى أنه لن يعود . انصرفت ولكن من طريق آخر غير الذى كانت تقصده . بيد أن نظرة بعيدة جدا ألقته بين الأحراج وجذوع النخيل والأعشاب المتكاثفة فى قلب المزرعة . جعلتها تعود الى ذهولها مرة أخرى ولكن على شكل أكثر فزعاً وجزعاً وعنفاً من قبل . فقد رأت الذئب قابعا بجوار اللقافة يكاد يمسد ذلك اللسان الطويل وتلك الأنياب المدببة ليفض ما بقلبها . فانقضت عليه سريعا محاولة أن تطرده كما فعلت فى المرة الأولى بيد أنها لم تكدر تفعل حتى غم عليها لقد رأت نفرا من أهل القرية تعرفهم جيدا ويعرفونها جيدا فليس فى قرينتا من أحد لا يعرف الآخر معرفة جيدة . وأنهم أمامها عائدون من الحقل فى هذا الوقت من الليل وكادت تسقط أمامهم لولا أنها تماسكت فى مكانها بعد تلك الصرخة التى انفلتت منها من غير قصد . انهم من غير شك سوف يرونها وسوف يرون الطفل الذى تريد أن تنقذه من أنياب الذئب وسوف ينكشف السر الذى كانت تخافه . والذى هو فى قرينتا فتنة أشد من القتل . ولو أن الأمر يتعلق بها وحدها ليسر وهان . ولكن . ولكن أمها المتقدمة فى السن . أبوها الكهل المعجوز الذى هو خير شيوخ القرية وأرفعهم قدرا وشرفا وأخلاقا وأخواتها ، اخواتها الأقوياء الأشداء الذين يسيرون فى القرية مرفوعى الرأس غير مطأطئى الهامة أبدا . كل هؤلاء ما مصير مستقبلهم أيضا . . وحانت منها التفاتة فى الظلام فرأت تلك الجماعة من الناس تقترب منها حتى لتكاد نصطدم بها .

وحانت منها التفاتة أخرى فى الليل . فرأت الذئب وكل الذى بين أنياه واللقافة كالذى بين شفتيها المحترقتين ولفحات النار التى تخرج من بينهما . فصرخت صرخة مدوية فى الظلام وراحت هاربة تركض على

غير هدى •• تتخبط بين الأحراج والأعشاب المتشابكة وجذوع النخيل •  
وأسقط فجأة في يد تلك الجماعة فقد حسبوا اللصوص يسلثون المزرعة في الليل.  
فراحوا يطاردونهم في عنف والفتاة تفر من أمامهم في عنف أيضا •  
وكل همها فقط أن تنجو بنفسها من هذا الشر الذي لا ينتظرها وإنما  
ينتظر أسرتها جميعا • لذلك راحت تركض كالرياح تماما • ومن خلفها  
تلك الجماعة تصرخ وتنادى وتمعن في الركض خلفها • ولكن المطر  
الذي كان ينهمر بغزارة وتصفع نقاطه سعف النخيل في الليل صفعات  
مدوية تختلط أصواتها بزمجرة البحر في الليل وعواء الرياح في الظلام  
كل ذلك قد جعلهم يخطئون أثرها • وحين كانت الجماعة تركض  
وتصرخ وتكر وتفر باحثين عن اللص أو اللصوص • كانت الفتاة تركض  
شمالا في أقصى سرعتها عائدة إلى الدار التي خرجت منها • وقد استغرق  
هذا كله وقتا طويلا لم تعرف الفتاة أنه كاد يستغرق الليل كله إلا عندما  
رن في أذنيها وهي على مقربة من الدار صوت المؤذن يدعو الناس إلى  
صلاة الفجر وما أن سمعت ذلك وطالعتها واجهة الدار التي تعمل فيها  
من بعيد حتى ازدادت جنونا • كما ازدادت سرعة وركضا • وما أن  
أقبلت على بابها حتى نسيت أنها تعمل خادمة بها وأن عليها أن تقوم بما  
يقوم به الخدم من حذر وهدوء يجنب السادة اقلاقهم ويتيح لهم الهدوء  
الذي ينشدون •• بل اقتحمت الباب في عنف شديد جدا • وراحت  
تصعد السلم الذي قابلها في عنف شديد جدا أيضا • وما أن بلغت بابا  
معينا لغرفة معينة تكاد تكون بعيدة عن غرف الدار جميعا حتى اقتحمته  
في عنف شديد • وما أن رأت شابا وسيما غارقا في نومه الهادئ اللذيذ  
في قلب الفراش الوثير الذي ينام عليه • حتى ألقت بنفسها القاء عليه •  
وأنشبت أصابعها المضطربة المرتعشة في شعره الطويل الناعم وجرجرته  
من شعره على الفراش وهي تصرخ في وجهه صرخاتها الجنونية وتنظر  
إليه بتلك العيون التي مازالت تقذف شرر النار •• وتصرخ :

— ابنك •• ابنك •

وفتح الشاب عينيه نائما في أول الأمر ثم ذاهلا في آخر الأمر .  
يسأل :

- ابن من ؟

- ابنك • ابنك أكله الذئب • أكله الذئب •

واتسعت عينا الشاب وهو ينظر إليها دهشا • ويسألها مرة  
أخرى :

- ابن من ؟

- فهزته في عنف وما زالت تصرخ :

- ابنك أنت • ابنك انت •

وهمت أن تصرخ في وجهه صرخة أخرى • • وتقول له شيئا  
آخر • بيد أن لكمة قوية هائلة سقطت فجأة على صدغها الأيسر ونصف  
رأسها كله فخنقتها وكتمت الصرخات وأغرقتها في لجة من الدم الذي  
انبثق وتفجر من فمها ومنخاريها •

ووقفت الفتاة أمامه متحجرة النظرات لا تطرف ولا تجيب واضعة  
يدها على ثغرها ومنخاريها • ثم خرجت من الغرفة محاولة أن تجفف  
تلك الدماء • بيد أنها لم تستطع أن تمنع الخيوط الحمراء القانية التي  
تسللت وسالت مختلطة ببعض نقاط جافة من دماء قديمة كانت لاتزال على  
الصدر • وظلت تسير صامتة • • وغادرت الغرفة صامتة • • ومن ثم  
هبطت السلم وغادرت البيت صامتة • • وكذلك غادرت القرية ومزرعة  
النخيل صامتة أيضا • بيد أنها وقفت فجأة عند مكان معين بالذات •  
وراحت تنظر في هدوء الى جذع نخلة كبيرة • ولفافة ممزقة • وعدة  
خرق بالية ملوثة بالدماء • • وبجوارها عظام جمجمة لطفل وليد •





فانت ربيع

كانت تقبل كل صباح وفي وقت محدد بالذات ، وتجلس الى طاولة معينة تطل على البحر من احدى شرفات حلوانى اثيوس بالاسكندرية ، وتجلس هادئة ساكنة الحركة • كل شىء فيها صامت لا ينبس ، نائم لا يستيقظ ، أشبه ما يكون تماما بشىء محترق •• شىء ذاق الوجود وذاق العذاب وذاق الهنساء وذاق النار ، ثم احترق ولفظ كل عذاباته وهناءاته أيضا ، وأصبح وجوده بالنسبة اليها منتها ، وان كان بالنسبة اليك غير ذلك ، لأنك مازلت تراه • وكانت تظل كل يوم من العاشرة صباحا الى الواحدة بعد الظهر فى هذا الصمت المطبق وهذه الحركة الخرساء ، تنظر حينا الى زرقة البحر ، وكأنها تبحث بنظراتها الساهمة عن شىء فى أغواره ، وكان يخيل الى ، فى كثير من الأحيان أنها وجدته لأن عينيها كانتا تستقران على صفحة الماء وتثبتان فى غير تحول ولا تلفت ولا ملل ، وكثيرا ما خالجنى وهمى بأننى أرى عمق الماء نفسه مع عمق هذه النظرة •• وحينا آخر تتحسس العين وردة بيضاء فى يدها ذات لون غريب بين الزهور ، فان بياضها يلفت النظر ويسترعى الانتباه ويميزها عن سائر اخواتها فى دنيا الأزاهير •

كانت هذه الزهرة هى المتعة الوحيدة لعينها طوال الساعات الثلاث التى تجلسها الى الشرفة المطلة على البحر •• كانت تنظر اليها وتتفحصها بعينيها الواسعتين الجميلتين ، وتمعن فى النظر اليها ، حتى وكأنها تتعمق قلبها وتتحسسه بعينيها ، وكأن هذا كان يطربها ويثلج صدرها ، لأننى كنت وأنا أرقبها من بعيد ، أرى أساريرها تنفرج رويدا رويدا ، ووجهها الفاتن يستعيد بهجته • وكثيرا ما كانت تبسم فى ابتهاج فياض وهى تلم شتات تلك النظرة من أوراق الوردة وأقوافها ، فعجبت لهذه النفوس الرقيقة ، وكيف لا يستهويها الا كل ماهو رقيق مثلها • وكنت فى ذلك الحين أراها كل يوم تقريبا ، لأننى كنت بحكم عملى ، أتردد على هذا المكان يوميا ، وأكاد أجلس تماما الى الطاولة التى تقع فى مواجهتها ،



فقد كنت أشتغل سكرتيراً خاصاً لأحد الوزراء السابقين ، وكان من رواد أثينوس ، وقد ظل على ما أذكر من رواده حتى الآن . فكنت أذهب إليه كل صباح ، وأجلس قبالة لأقرأ له جميع صحف الصباح والمجلات وأعلق له على جميع الأخبار الخاصة بالحزب وغير الحزب ، والسياسة والاعلانات والوفيات ، ثم يتضح بعد ساعتين من القراءة أن معاليه يغط في نوم عميق .

وحدث ذات صباح أن كنت أحترق محطة الرمل في طريقي الى أثينوس ، فاسترعى نظري عند بائع ورد في الميدان ، باقة جميلة من زهرة الكلير الناصعة البياض ، فتذكرت في الحال تلك الغادة التي تحب هذه الزهرة ، ووجدتني وبلا تفكير أشتري منها عدة زهرات حملتها في يدي وانصرفت ، وكان معالي الباشا لم يحضر بعد ، فجلست أنتظره وأنا أختلس من بعيد نظرة الى السيدة التي رأيته في مكانها وفي جلستها تتحسس الزهرة حيناً وتتعمق زرقة البحر حيناً آخر . وكانت لم ترني بعد ولم تظن لوجودي وهي كثيراً لا ترى أحداً ولا تظن لوجود أحد بيد أنها في هذه المرة رأته وهي تلقى بنظرة عابرة ، وعندما همت أن تحول نظرتها عني لمحت مصادفة الزهرة في يدي . وما أن رأتها ووقعت عينها عليها حتى أرجعت بصرها الى سريعا ، وكأنها استقرت على الزهرة التي في يدي ورأيت فجأة أساريرها تتفتح ؛ وثغرها يفتقر شيئاً فشيئاً حتى تحول الى بسمه من نور تشبه في صفاتها صفاء الزهرة التي في يد كل منا ، واذا بها أيضاً ، وفجأة وبلا مقدمات ، تحييني وفي الابتسامة العذبة التي انطبعت على شفثيها الحلوتين وتقول في لكمة عربية محببة جداً :  
- صباح الخير .

فارتبكت وتلعثمت وارتعشت شفتي ، وهذا هو حالي دائماً عند اللقاء الأول ، أو الحديث الأول ، أو حتى الابتسامة الأولى ، الا أنني ، برغم ذلك كله ، رددت عليها التحية سريعا وبأحسن منها ، وكان هذا سرها ، لأنها نظرت الى في طرب وقالت على الفور وخيال عينيها يداعب الزهرة التي في يدي :

— اذا كنت لا أضايقت فانه يسعدنى أن تشرب قهوتك معى •

قالت ذلك وهى تشير الى مائدتها والمقعد الخالى أمامها ، فزداد ارتباكى وتعالى دقات قلبى سريعا ، ولكنى تجاهلت وجيب القلب وكنمت ضرباته وحاولت أن أتغلب عليه حتى لا يفتضح أمرى ، لأن التجارب علمتنى أن الفرحة المبالغتة تفعل بالقلب ما تفعله تماما الصدمة العنيفة • ونهضت اليها سريعا شاكرا لها هذا العطف أو التنازل الكبير ، ومددت لها يدى بعد أن بذلت الجهد فى اخفاء رعشتها ، فمدت الى يدا بضعة رخصة الأنامل حلوة اللمس تكاد رقتها تشبه تماما رقة الزهرة التى بين أنامل يدها الثانية ، وصافحتنى وهممت أن أجلس ، غير أننى لمحت من بعيد معالى الوزير السابق يقبل على مهل بجثته الضخمة وكرشه الكبير فأسقط فى يدى ، وتركتها وانصرفت سريعا الى المائدة المخصصة لمعاليه دائما ، وجلست اليها أنتظره ، وعزائى الوحيد أنه لم يرنى ، لأن نظره معاليه كان ضعيفا ، وكان هذا يسبب لى متاعب كثيرة ، ولكن كنت أحتملها لأن لها بعض المحاسن ، كهذه الحسنة ، وأقبل معاليه وجلس الى مقعد الوثير ونزع طربوشه الطويل وناولته لى لأضعه أمامه على المائدة ، ثم رجع بظهره الى الخلف وصمت بعض الوقت وكنت بطبيعة الحال أصمت اذا صمت ، وأتكلم اذا تكلم • ثم قطع صمته وقال فجأة ، وهو « يبرش » بعينه الضيقتين من خلف منظاره الأخضر الكبير :

— هذه المرأة التى تجلس أمامنا ، تنظر الينا من حين الى آخر •

من هى ؟

فاضطربت جدا ، لأنها كانت تنظر الينا فعلا • وقلت :

— انها تنظر الى معاليك ولا شك •

فابتهج وقال وهو يتحسس يده الناعمة شاربه الطويل الذى كان

يعنى به عناية فائقة :

— وهل تعرف من أنا ؟

- من غير شك ، فصور معاليك كثيرا ما زينت صدر أمهات الصحف .

فازدادت الابتسامة التي أنارت وجهه وقال :

- ولكنى الآن خارج الوزارة .

- ولكن غدا ستدخلها باذن الله . لقد بلغنى أن الأزمة الوزارية قد استحكمت حلقاتها والحمد لله ، وأن القصر سوف يقلبها خلال أيام .  
فتهلل وجه معاليه ، وقال وهو ينظر الى مجموعة الصحف والمجلات التي أمامنا :

- اقرأ ، اقرأ . ما الأخبار اليوم ؟

وبدأت أقرأ ، وبدأ هو ينام ، الى أن انتهت من قراءة الصحف جميعا كالمعتاد ، وهم معاليه بالانصراف وشيء من الغضب يبدو على وجهه ، لأن أخبار الصحف لم يكن فيها ما يطمئنه الى اقالة الوزارة كما قلت .  
وعند الباب الخارجى ركب سيارته وانصرف ، وعدت أنا سريعا الى المائدة ، فرأيتها لا تزال تجلس اليها ، وجلست معها ، وبدأنا الحديث فقالت ومعالم البشر ترسم على وجهها :

- من هذا الرجل الضخم الذى لا يجيء هنا الا لينام ؟

وكنت أظنها تعرفه ، فقلت انه فلان وذكرت اسمه فقط .

- ماذا يعمل ؟

- وزير سابق .

فقلت ضاحكة وهى تعاود النظر فى سرور الى الزهرة التى فى يدها :

- ظننته كل شيء الا هذا .



فمستحكت وغيرنا الحديث الى أن قالت وهى ما تزال تنظر الى الزهرة وتأملها :

- هل تحمل هذه الزهرة لأنك تحبها ، أو أنك أحبتها من أجل  
•• كن صريحا معى ؟ •

فارتبكت. لأن الجواب فيه حرج كبير ، وغير مأمون العاقبة ، فإذا قلت لها اننى أحبها أصلا ، فربما لا يهيجها ذلك بقدر ما يهيجها اننى أحبها من أجلها ، وإذا قلت لها ذلك ، فقد يضايقها هذا الغزل الجرىء ، لكن التجارب علمتني أنه من الخير ألا أدع هذه الفرصة تفلت من يدي ، ولذلك صمت قليلا ثم قلت :

- أيهما يكون أكثر ارضاء لك من الآخر ؟ •

- اننى أسألك ؟ •

فازداد الموقف تحرجا بالنسبة لى ، ولكنى أمسكت بالخيوط من الوسط وقلت :

- الحقيقة أنا أحب أصلا هذه الزهرة ولا أحب من الزهور سواها  
ولذلك سرنى كثيرا جدا أن يكون هذا الحب متبادلا بيننا •

- منذ متى أحبت هذه الزهرة ؟ •

فنظرت الى عينيها الجميلتين وقلت :

- منذ أن عرفت قيمة الزهور •

فابتسمت وهى تقول ناظرة الى :

- هذا خبث جميل منك •

وسادت فترة صمت بيننا ، قطعتهما أنا فى التأمل الى صفاء عينيها وعمق نظرتها ، وقطعتها هى فى النظر الى الزهرة فى يدها تتحسسها وكأنها تنظر الى قلبها وتستمع دقاته وتقرأ أحاسيسه ، الى أن قلت وأنا أتعهد أن أضحك :

- منذ متى تحبين هذه الزهرة ؟ •

• منذ رأيته •

فقلت ، وأنا أدعو الله مخلصا أن يجنبني في هذه اللحظة بالذات  
أزمات الغباء التي أقع فيها في مثل هذه المناسبات ، وأن يحل عقدة  
لساني :

• - أتعرفين أنني الآن عرفت شيئا ظل يحيرني عدة سنوات ؟ •

• - ماهو ؟ •

• - هذه الزهرة •• انني أعرف أن أي شيء لا يوجد الا لسبب ••  
جميع الزهور مثلا ، خلقت لأكثر من فائدة •• عطرها •• رائحتها ••  
طعمها •• حتى التي لا طعم لها ولا رائحة ، تكون غذاء شهيا للنحل الذي  
نأكل منه الشهد ، أما هذه الزهرة بالذات ؟ على ما عرفت ، فلا عطر فيها  
ولا طعم ولا رائحة • وهي من الزهور السامة التي تميت النحل ان  
ذاقها •

وما أن وصلت الى هذه النقطة حتى تجهم وجهها فجأة ، وارتدت  
سحنتها ونظرت الى نظرة غير التي كانت تحبوني بها من لحظة • فأسقط  
في يدي ، وعرفت أنني « لبخت » وأن الغباء الذي كنت أدعو الله أن يبعده  
عني ، أصابني وبأوه ، كأنما كنت أدعوه أن يهبه لي ، ومما زاد الطين بلة  
أنها قالت وهي تنحى وجهها كله عني :

• - أكمل ، وبعد ؟ •

فتعالت دقات قلبي ولكني قلت مستطردا :

• - ولذلك ظللت أسأل نفسي عدة أسئلة ••

لماذا خلقت هذه الزهرة ؟ ••• ولماذا أنا أحبها كل هذا الحب • ؟  
الى أن اهتديت اليوم فقط الى الاجابة الصحيحة ، فاذا بها خلقت لأسمى  
ما خلق له شيء في الوجود •

• - ما هو ؟ •

• - لتجمع بين القلوب ، وتؤلف بين المحبين •

فعاد البشر سريعا الى وجهها ، وقالت وهى تنظر الى نظرة تماثل صفاء  
الزهرة تماما :

— ألم أقل لك انك خيث ؟ •

فحمدت الله اذ أنقذنى فى آخر لحظة • وانصرفنا بعد أن تواعدنا  
على اللقاء الثانى ••• وفى اللقاء الثانى توطدت علاقتنا الى حد كبير  
ما كنت لأتصور أن تتم بهذه السرعة • كانت « أنا » وهذا هو اسمها  
سويسرية الأصل ، ولكنها ولدت فى الاسكندرية وظلت تعيش فيها  
وحيدة • انها تقطن بمفردها فى شقة أنيقة للغاية فى حى الشاطبي •  
هذا ما استطعت أن أعرفه عنه ، فهى حريصة على ألا يتدخل أحد  
فى شئونها ، ولما توطدت علاقتى بها اتفقت معى على أن نلتقى مرة واحدة  
فى الاسبوع ، وأن يكون اللقاء عندها فى البيت ، وأن يبدأ من الخامسة  
بعد الظهر وينتهى فى السابعة من صباح اليوم الثانى ، ومازلت أذكر هذا  
اللقاء الذى لا يمكن أن تحسب لحظاته من العمر ، ويوم دخولى بيتها  
لاول مرة ، ذلك البيت الجميل الهادئ ، رأيت كل مافيه يشبه رقعة  
زهرة الكلير التى كانت سبب تعارفنا ، ثم ان هذه الزهرة تكاد تكون هى  
كل مافى البيت •• ما من ستارة الا وعليها رسم هذه الزهرة ، وما من  
مفرش الا وهو مزين برسما حتى غرفة النوم ، فانك ترى الزهرة فى  
كل مكان فيها ، على الحائط • على الوسادة • على ملأة السرير • على  
الكومودينو • على الروب الذى ترتديه • على القمص الرقيق الذى  
ينساب على جسدها الأملس ، وكنت أنا أنظر الى هذا كله لا أزداد الا  
دهشة ، وكانت هذه الدهشة تزداد كلما ذكرت اتفاق الجنتلمان الذى تم  
بيننا ، وهو أننى لا أحاول أن أعرف عنها شيئا أكثر مما عرفت ؛ ولأحاول  
أن أراها طيلة الاسبوع الا فى هذه الليلة التى كانت تطلق عليها «ليلة الكلير»  
وأىضا ، وهذا هو أهم مافى الاتفاق عندها ، ألا أحاول بأية حال ، أن  
أقدم لها شيئا نظير هذا اللقاء ، وان فعلت فلن يكون بيننا لقاء •

• أما الذى كانت تصر عليه وتفرح به فرحة الطفل بلعبة غالية ،  
فهو أن أقدم لها كل أسبوع باقة من زهرة الكلير التى تحبها ، ومازلت



أذكر حتى الآن ، بكل وضوح ، تلك الفرحة التي كانت تنبثق من عينيها عندما أَدق الجرس وتفتح لي الباب فيرى الباقة في يدي . . ان وجهها يتهلل ، وكل شيء فيها يهتز ويرقص ، وتهرع الى طروبا كطفلة ، وتقبلني في فرحة غامرة ، وتلتقط الباقة من يدي وتدق وجهها بين أوراقها الناعمة وتروح تقبلها بنهم عجيب . ومع أن هذا كان يدهشني كثيرا فانه كان يطربني الى حد كبير ، لأنني كنت أعتقد في قرارة نفسي أنني انما أقدم لها فعلا شيئا تحبه ، بل يكاد يعوضها عن كل ماتقدمه لي طيلة ليلة كاملة ، ولذلك كنت قبل يوم الثلاثاء بيومين ، وهو يوم الهناء الاسبوعي ، أذهب الى بائع الزهور الذي تعودت أن أشتري منه هذه الزهور لأطمئن عليها وعلى تنسيقها ، وكان هذا هو أهم ما أعنى به طوال الأسبوع تقريبا .

الى أن حدث ذات يوم ، أن استحكمت الأزمة الوزارية فعلا ، وراح الأمل المريض يدب في قلب معالي الوزير السابق ، فأقلع عن الذهاب الى أثينوس ، وجلس في قصره الكبير في فكتوريا يستقبل وفود الزائرين الذين أقبلوا لتهنئة معالي الوزير المقبل فشغلت ، لهذا السبب ، عن المرور على بائع الزهور قبل يوم الثلاثاء كالمعتاد ، وذهبت في عصر اليوم نفسه فاذا بي أرى مفاجأة كادت تذهلني ، وهي أن هذه الزهرة لا وجود لها في مدينة الاسكندرية منذ ثلاثة أيام ، ومن العيب أن أبحث عنها عند أي بائع آخر . . . ووقفت حائرا ، أكاد أسقط من فرط ما اتابني من ألم واضطراب فلا أنا بقادر على أن أحرم نفسي متعة العطر التي يتيحها لي القدر مرة في الأسبوع ولا أنا بقادر على أن أذهب الى « أنا » من غير هذه الزهور التي هي كل سعادتنا في الدنيا . ولما رأى بائع الزهور حيرتي البسالة أخبرني أن أضرب باخر سهم وأذهب الى بائع زهور معين ذكر لي عنوانه في اسبورتنج وان لم أجده هذه الزهرة فمن العيب أن أفكر في الحصول عليها الليلة أو حتى غدا . . وذهبت الى اسبورتنج ، وكل رجائي أن يحقق الله آمالي ، ولكنني رجعت حزينا مهموما خالي الوقاض ، وكان المساء قد حان ، فرحت أسب وأسخط وألعن السياسة والوزارة والوزير

السابق والوزير اللاحق فلولاً هذا لكنت قد تصرفت وإتيت بهذه الزهرة من بلاد واق الواق ولو دفعت حياتي ثمناً لها .

وبينما أنا على هذه الحال أحمل أحزان الدنيا فوق رأسي ، تصدفت أن حانت مني التفاته ، وكان الترام الذي أركبه يمر بمقابر الشياطين ، فرأيت مقبرة ما ، ويجوارها في اناء أخضر اللون باقة يانعة من زهرة الكلير ، وما أن رأيت ذلك حتى واتتني فكرة ، وإلى اليوم لا أدري كيف واتتني ، ولا كيف تجرأت على تنفيذها بسرعة ودون تفكير ، فقد هبطت من الترام على عجل ورحت أبحث عن أي بائع زهور مجاور في الشاطبي ، واشتريت منه كمية وافرة من الزهور ، وانصرفت إلى المقبرة .

وهناك اصطنعت الحزن والبكاء ، ثم نولت الحارس قدراً كبيراً من النقود ، حتى دخلت إلى المقبرة ، ووقفت على ذلك القبر المعين بالذات ورحت أنثر عليه الزهور التي معي وأنسق بعض الزهور التي على القبر ، ثم انصرفت وأنا أحمل تلك الباقة الجميلة الناصعة البياض ، وذهبت بها إلى بائع زهور آخر نسقتها لي من جديد ، وزينها حتى أحالها إلى باقة جديدة يانعة ، كأنها قطفت للحظتها ، ولم أكد أرى الباقة على هذه الصورة حتى دبت الفرحة في قلبي ، وحملتها على صدري وكأنتي أحمل سعادة الدنيا كلها ، وذهبت إلى منزل « أنا » وأنا أشكر الله الذي لم يتخل عني ، ومددت يدي التي كان يخيّل لي أنها ترقص من الفرحة كما يرقص قلبي تماماً ، ودققت الجرس ، وما أن فتحت لي « أنا » الباب سريعاً كما تعودت أن تفتحه في كل مرة ، ورأت الباقة في يدي ، حتى انطفأت ابتسامتها في سرعة البرق ، وزوت ما بين حاجبيها ، وقالت على الفور وقد انقلبت سحنتها إلى شيء مخيف :

— من أين أتيت بهذه الباقة ؟

فدهشت ولكنني قلت فيما يشبه الزهو . وأنا أخطو خطوة إلى

الداخل :

— من عند بائع الزهور كالعادة .

فصرخت صرخة مازالت نبراتها الملهبة تحرق أذنى الى اليوم :

— أنطق .. من أين أتيت بهذه الباقة ؟ •

قلت : من عند بائع الزهور •

— هذه الزهرة لا وجود لها فى المدينة بأسرها من يومين .. فمن

أين أتيت بها ؟ •

فتوجست خيفة • ولم أنطق ، ولكنها لم تمهلنى ، وانما رفعت يدها فى عصبية حادة وصفعتنى على وجهى صفة موجهة ، ثم ارتمت على المقعد الذى كان بجانبها تلهث وتنشج كحيوان جريح • وكل الذى استطاعت أذنى أن تلتقطه وتسمعه من خلال نشيجها المتقطع ، وهى مجمدة على المقعد تتلوى وتئن ، هو أن هذه الباقة التى جئت بها اليها ، هى ذاتها التى وضعتها بيدها على قبر حبيبها ، فقد كان حبيبها الراحل يحب هذه الزهور ولا تزال تحبها الى اليوم من أجله •





أَنْفُسُ لَوْ جَزَا

قال بعد صمت طويل • وكنا نسير معا فى الطريق :

— هل فى استطاعتك أن تدلنى على طبيب ممتاز ؟

— لماذا ؟

— أريد أن أسأله عن شيئين هامين •

وظنته يقول عن دوائين فقلت :

— لماذا الطبيب • اذهب الى أجزاخانة ، واسأل أى صيدلى

فنظر الى وقال فى ضيق :

— وما دخل الصيدلى فيما أريد ؟

— انه هو الذى يصنع الدواء •

— أى دواء ؟

ولما عرفت اننى أخطأت الفهم، اعتذرت له وسألته :

— فى أى شىء تريد أن تسأل حتى نبحث عن طبيب أخصائى ؟

فقال وهو ينظر الى الأرض • وكأنه يبحث عن شىء افتقده :

— أريد أن أسأل أيهما أكثر نفعاً للصحة • هل أتغطى وأترك

النافذة مفتوحة أو أغلق النافذة وأنام من غير غطاء ؟

فدق قلبى سريعا • وتوجست خيفة • ونظرت الى عينيه المحمرتين •

ووجهه الفارق فى الاصفرار • وقلت وأنا أستعرض سريعا بعض خطابات

الى • وأيضا بعض تصرفاته منذ اللحظة التى وفد على فيها • فقد كرر

لا يزال يقيم فى دمنهور حيث كنت أقيم معه فيما مضى • وكان يتردد على

فى القاهرة من حين الى آخر • جمعت هذا كله فى خيط واحد • وعقدته

على شىء وقلت وأنا أضطرب :

— وأنت ماذا تريد ؟



فلم يجب. وإنما ظل في صمته المطبق • وظلت عينه في مكانها عند  
قدميه تبحث عن ذلك المجهول • وكلما وجدته أو كادت تنظر به افتقدته  
ثانية في لجة ذلك الأحمر الذي تتخبط فيه نظراته • وظل كذلك الى  
حين • ثم بذل جهدا كبيرا حتى حرك شفثيه وقال وكأنه يخاطب شخصا  
غيري :

— وهل ينال المرء ما يريد ؟

فاطمأن قلبي الى سلامة هذا القول وتبددت بعض مخاوفني وعرفت  
أن الأمر لا يخرج عن كرب يعانيه ••• فقلت على الفور :

— اذا خلصت النية ، وقويت العزيمة ؟ وتحملت النفس مشاق  
الصعاب •

فاقتر ثغره وقاطعني قائلا :

— ماذا يحدث ؟ — لا بد أن يصل • — لا بد ! •• — لا بد ••

فاستطالت الابتسامة التي على ثغره حتى أنارت الوجه كله وقال  
فرحا :

— أمتيقن أنت مما تقول ؟

— كل التيقن •••

— اضرب مثلا •••

— الأنبياء والرسل •• والأبطال • وأولو العزم جميعا ••

— دعنا من هؤلاء الذين لم نرهم الا في الكتب والروايات •• انني  
أسألك عن نفسك •• ألم تفشل قط في نيل شيء أردته ؟

— كان يتضح لي دائما بعد الفشل أن عزميتي كانت غير نجادة فيما  
أريد أنا •

— وهل أنت شيء وعزيمتك شيء آخر •• ؟

— من غير شك ••• ؟

— كيف •• ؟

- العزيمة لا تشهر سيفها إلا دفاعا عن القلب •

فزالت الابتسامة التي على وجهه وقال مقطبا في ضيق :

- وهل الانسان غير قلبه ؟

- مثلا • انك تفكر في الشراء شيء • • • • • وانك تفكر في الحصول

على قوت يومك شيء آخر •

فتطلق وجهه بعض الشيء وقال :

- وماذا أيضا ؟

- وانك ترى امرأة جميلة فتشتتها وتريد الحصول على جسدها

شيء • • • • • وانك تحبها وتريد الحصول على قلبها شيء آخر •

فصرخ على الفور وهو يفرس أصابعه في كففي فرحا ويقول :

- اذن سوف أصل الى ما أريد •

وكنت تواقا جدا الى معرفة خبيثته فقلت على الفور لكى أختلس

سره دون أن ينطق :

- وما الذى تريد ؟

- ان أتحقق أيهما أصح • • ان أغطي وأترك النافذة مفتوحة • أم

أغلق النافذة وأنا من غير غطاء •

واختلست نظرة اليه وأنا أسير بجانبه • فرأيت بعض الدموع

تروح وتجيء في عينيه • وكنت أعرف أن الرجل اذا بكى أصبح من

السهل عليه أن يشكو ولا سيما اذا تجاهلت أحزانه وحاولت أن تخرج

به عن محيطها • ولذلك رحت أتحدث اليه في أشياء بعيدة جدا عن

نفسه ، تحدثت اليه عن دمنهور وأهل دمنهور • وذكرياتنا فيها •

وشبابنا الذى سفكنا دمه على أرضها • وخرقنا شمعتة فى ربوعها • فكان

لا يجيب الا نادرا • الى أن قال فجأة وهو ينظر الى الأرض ويبحث عن

ذلك الشيء الذى افتقده عند قدميه :

— هل جربت الحب ؟

فأمسكت سريعا بطرف الخيط. وقلت :

— أجل • ومن لم يحب لم يعيش •

— وما رأيك فيه ؟

فنظرت الى آثار الدموع التي في عينيه وقلت :

— أجمل ما فيه تلك الدموع التي تذرّفها بين يدي الحبيب •

— وان لم يوجد الحبيب • ؟

فدق قلبي ثانية ، وتعالّت دقاته وأنا أنظر الى تلك اللّجة الحمراء

التي تصطرع في عينيه وقلت :

— تقصد اذا تجنى الحبيب ، أو هجر •

— أقصد اذا كان لا وجود له أصلا •

فتحققت مخاوفي على الفور وقلت في خوف شديد

— هذا هو أسمى درجات الحب •

— اذن أنت تؤمن بالحب الذي لا وجود له ...

— كل الايمان •

فنظر الى بعينه المحمرتين وقال :

— وكيف تؤمن بشيء لا وجود له ؟

فأسقط في يدي وارتبكت جدا ولكني قلت :

— يكفي أن أؤمن أنا بوجوده •

— وماذا تسمى هذا الحب ؟

— الجنو ...

وكدت أتم الكلمة ولكني تداركت سريعا وأمسكت شفقتي .

كدت أقطعها • ثم قلت بعد أن أخذت نفسي :



- يسمونه •• يسمونه •• الحب من طرف واحد •

- أتعرف أنه أشقى ألوان الحب •

- من غير شك •

- وأن صاحبه مصاب بمرض خطير •

- مرض عضال •

- وأن مرارته لا تحتمل • وقسوة أوجاعه لا يحتملها الا قلة من البشر هي التي خلق العذاب في هذه الدنيا من أجلها •

- أعرف ••• أعرف •

فعلت ثغره ابتسامة وأخرج علبة السجائر وأشعل واحدة وتركها بين شفتيه تتقد جمرتها في الظلام كما تتقد تماما الجمرة التي في عينيه •  
وقال :

- ولكن ما رأيك في هذا المرض على ما فيه من بشاعة هو أيضا والحق يقال • جميل رائع الجمال الى حد لو أنك شفيت منه ، تافت نفسك الى الاصابة به مرة أخرى • لأنه يجعلك طول أيام المرض تعيش في دنيا غير دنيائك • دنيا فيها من خصب الخيال وعذب الأمانى • ورائع الاحلام ، ما يجعلك تتذوق هناءات الكون جميعه لأنك في هذه الحالة سوف تعيش في السعادة التي تريدها أنت لنفسك • لا التي يريد لها لك الغير • قال ذلك ثم نظر الى وقال وما زالت الابتسامة على ثغره :

- ما رأيك في هذا القول ؟

فقلت :

- هذا معقول جدا •••

فقال ولكن بعد أن ضمت قليلا :

- أما ذلك الحب الذي تعرفونه أنتم ، وهو الحب المتبادل بين الحبيبين ، فهو مريب كالحقيقة ذاتها ، لأنه هو نفسه حقيقة لا تستطيع أن تهرب منها • فهي ان غضبت فأنت حزين • لأنك لا تستطيع أن تنكر أنها

غضبت • وهى ان هجرت فأنت كلك أحزان لأنك لا تستطيع أن تنكر  
وحدثك ...

وكان هذا الحديث أعجبنى منه فرحت أصغى اليه باهتمام وراح هو  
يسترسل دون توقف ويقول :

- ولهذا فأنا سعيذ كل السعادة بهذا المرض الذى أصابنى وكثيرا  
ما كنت اذا جاءت المصادفة لكى أسترعى نظرها الى ذلك العاشق الولهان ،  
وهذا الصب المتيم ، أهرب سريعا من هذه المصادفة المواتية التى تريد بى  
الشر ، وأفضل الخيال الذى أعيش فيه على الحقيقة التى يكون فيها موتى •  
وأخرج سيجارة أخرى وأشعلها وأبقاها بين شفثيه وواصل حديثه :  
- وقد ظلمت زمنا أهرب من هذه الصدفة قاتلها الله ، الى أن جاء  
القدر يوما ، وأرغمنى عليها ارغاما ، وأوقنى ولست أدري الى الآن  
هل فى الشر الذى كنت أهرب منه أو فى الخير الذى كنت أرتجيه ؟

فقد كنت ذات ليلة فى السينما • • • والذى حدث فى تلك الليلة أننى  
ضقت بكل الاوقات الضائعة التى تسبق العرض • فنهضت خارجا واذا بها  
أمامى تقبل وتتهادى سكرى تترنج أعضاؤها جمالا وفتنة • واذا بعينى فى  
عينها • واذا بها تبسم • • • أجل والله العظيم تبسم • • • واذا بى أتجمد  
فى مكانى وأجلس ثانية سريعا جدا يدق قلبى من الفرح دقات كنت أخشى  
أن تفضحنى اذا سمعها من بجوارى وابتدأ العرض ؟ وظفرت منها بابتسامة  
أخرى • وهذه الابتسامة الاخيرة هى التى جعلتنى حتى هذه اللحظة  
لا أعرف هل عرض الفيلم أو لم يعرض ؟ هل شاهدت شيئا على الشاشة أو  
لم أشاهد ؟ وكل الذى أذكره أننى رأيت نفسى بعد العرض أسير خلفها  
فى الطريق ، وليس هذا تعمدا ، فقد كان طريقها وبيتها فى الحى  
الذى أنا فيه وقد زادت فى الطريق على الابتسامتين - زادها الله جمالا  
فوق جمالها وفتنة فوق فتنتها - انها عندما قرب بيتى وكانت تعلم أنى أسير  
خلفها التفتت الى الخلف بحجة أنها تحدث خادمتها التى تسير خلفها  
وحيتنى فى ابتسامة ثالثة منورة التقطها قلبى سريعا وطبع نورها على صفحته .  
ثم انصرفت الى بيتها • وانصرفت أنا الى بيتى •

ودخلت ليلتها غرفتي المتواضعة وتكاد قدمي من شدة الفرحة تبشر بي في كل خطوة • وأشعلت المصباح الزجاجي - لمبة نمره ٥ - ومازلت أحتفظ بها الى اليوم لانها كانت دائما تلوح لي بين أكداس الكتب المبعثرة فوق المائدة وتحتها أشبه بنصف مئذنة قائمة بين الاطلال •

وبينما أنا كذلك سمعت صوت نافذة تفتح ويدوي صوتها في الليل • فصدقت كل شيء الا الذي تبادر الى ذهني • وهو أنها فتحت نافذتها التي تطل على • وما أن فتحت نافذتي وتحققت من ذلك ورأيتها في نافذة المطبخ التي كانت أقرب نوافذ بيتها الى نافذتي • حتى وقفت أرقص طربا • وأتأملها وهي تتناول شيئا في طبق وتقف في النافذة وتأكل منه •

وتبادرت الى ذهني في الحال فكرة صائبة وهي أن أسرع الى اطفاء المصباح ولا سيما بعد أن تحققت هي من وقوفي في النافذة • حتى لا يلفت وقوفي انتباه أحد غيرها • مع أن الوقت كان بعد الثالثة صباحا ، وقد سرني أنها استصوبت هي أيضا هذه الفكرة لأنها أطفأت هي الأخرى نور المطبخ ووقفت في النافذة تأكل من ذلك الشيء الذي في يدها •

ووقفت أنا أمامها في الليل أتأمل كل شيء فيها ••• القميص الابيض الهفهاف الذي ترتديه • والشعر الكستنائي اللامع الذي تهدلت خصلاته الفاحمة على الكتفين والصدر ، والقمر الذي يصب ضحكاته فوق أمواج الشعر ونقاطه الفضية التي تنطبع على الصدر •••

ورأيت ذلك كله وكأني أراه لأول مرة • فرحت أتأمله دون وعي • ودون وعي أيضا أرسلت لها بيدي قبلة في الظلام فلم ترسلها لي بيدها كما فعلت وانما أرسلتها لي بشفتيها مع ابتسامة حلوة اختلط نورها بنور القمر المشع ، فجاءتني سريعا كما يجيئك صوت المحب سريعا يسري في أسلاك التليفون وظللت كذلك الى أن خدرت قدمي من طول الوقوف • فأدركت الزمن الطويل الذي مر بنا • ورأيت بشائر الفجر تلوح فترتد أمامها كتاب الظلام ، وعند ذلك شعرت بضيق شديد وخرج لا حد له لأنني سببت لها كل هذه المتاعب • وأردت أن أريحها لكي تستريح • ولكن ماذا أعمل • هل أغلق نافذتي وهي لا تزال في نافذتها واقفة ؟ هل



أظن كذلك وأزيد من متاعبها ؟ لقد أوشك النهار أن يلوح • وقلبي يكاد يتفطر ألما لقدميها اللتين أتعبتهما من أجل كل هذا التعب • وأخيرا واتتني فكرة وهي أن أخرج لها بنفسى وأقرب من نافذتها وأشكر لها كل هذا الفضل ، وهذا أسلم شيء ، ولا سيما أن الناس جميعا نيام وليس من مستيقظ في الوجود الا أنا وهي ••

وفتحت باب مسكنى وخرجت • وكان أخشى ما أخشاه أن تذهب بها الظنون مذاهب ليست من خلقى فستاء وتنصرف قبل أن أطلعها على السر في خروجى اليها الآن • واقترابى من نافذتها فى هذه اللحظة بالذات • بيد أن شيئا من هذا لم يتطرق اليها • لأنها ظلت فى مكانها لم تغادره • فحمدت الله وكدت أسجد له شاكرا وممتنا ••• واقتربت خطوة من نافذتها ولعلت عينى •• واقتربت خطوة أخرى فاذا بعينى تجحظ جحوظا غريبا ••• ثم اقتربت خطوة ثالثة حتى دانيت النافذة ؛ ووقفت أمامها أرقب بعينى رأس سلة كبيرة من الثوم معلقة فى نافذة المطبخ • وهي التى ظننتها حبيبة القلب التى ظللت طوال الليل أتغزل فيها وفى شعرها المتموج الذى يصب عليه القمر ضحكاته فى الليل • والذى كان هو الطين الأسود العالق برؤوس الثوم • وفى وجهها الذى كان يشع نورا فى عيني وما كنت أحسبه قشر الثوم الابيض الناصع البياض • ثم فى قميصها الهفهاف اللامع الذى كان هو السلة اللعينة التى تحمل الثوم نفسه • ونظرت اليه مشدوها تعقد الدهشة لسانى وتكتنف الآلام وجهى • فنظر الى وقال ضاحكا :

— أما أنا فلم أحزن ، وانما شعرت بسعادة بالغة لأننى سوف ألتقى بها يوما وسوف أقص عليها هذا الذى حدث • وسوف تضحك كثيرا وغاية ما يطمناه العاشق هو أن يضحك الحبيب •

وكنا قد بلغنا المحطة • وكان القطار قد دوى صفيحه ، فمددت يدي لأودعه فاذا بأنامله ترتعش فى يدي ارتعاشا عنيفا فقلت له :

— هل أنت مريض ؟!

— لا أبدا • فقط شوية أنفلونزا •

تم الكتاب

م ٧ — هذا النوع من النساء

## فهرس

الصفحة	الموضوع	بى ف أخته فوق
٣	غدا ٠٠٠ سأحبك	
٢٩	الترحيلة	فص
٤٧	ليال من العمر	تطل
٥٧	صانع الأحزان	التي وم
٦٩	الذئب	
٧٧	ذات ربيع	المه
٨٩	أنفلونزا	وآ أز وا







## مطابغ الدار القومية

١٥٧ شارع عبّيد - روض الفرج

تليفون } ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢  
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤



الثمن ١٣ قرش

العدد ٤٨

36  
9h



0617277